الرِّبَاط الأَسوَد

obeikan.com

الكتاب : الرباط الأسود
المؤلف : سلمى فايد
تصميم الغلاف : كريم أدم
رقم الإيداع : 2014/20323
الترقيم الدولي : 978-977-6436-93-0
الطبعة الأولى : 2015

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت-02-35860372 011-27772007
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

obeikan.com

الرِّبَاط الأَسوَد

رواية

سلمى فايد

للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

إهداء

إلى هؤلاء الذين يختلِسون النظرَ إلى ما لا يجبُ عليهم أن ينظروا إليه..

obeikan.com

obeikan.com

عندما يدفع الناس دماءهم ثمنًا لحقّ الحياة، يصبح القتل شرفًا، والثأر منتهى النبالة!

obeikan.com

obeikan.com

(١)

بعد منتصف الليل..

الطابق الخامس..

الشقَّة رقم ٢٠ يمين المصعد..

الحوائط المغلَّفة بالقطيفة الحمراء والمرايا العريضة تُضفي على المشهد شيئًا من الجنون. قطرات الزيت تنسابُ ببطء فوق البشرة الخمرية.. لم تكُنْ تبدو في السّنّ التي أخبرتني بها، أكثر حزنًا، أكثر فزعًا.. عليها أن تتمايل حسب ما تُمليه عليها الموسيقى الشيطانيَّة التي تصدح من سمَّاعات السقف، تتابعها نظرات الذكور العُراة الذين يظهرون في تصاوير بالحجم الطبيعيّ على الحائط الشرقي، الضوء الأصفر المنبعث من مصابيح الحائط المقابل يختلط بأضواء السقف الخافتة الزرقاء، فتبرز الانحناءات السمراء أشدَّ خطورةً.. وأشدَّ غوايةً، تتعثّر خطواتها، فتتطاير خصلات الشعر الفحميّ وتتهادى بعد منطقة الوسط قليلًا، يختلط الزيت المنساب على بشرتها بخيوط الماء المتساقط من عينيها، يتسرّب إلى المشهد بعض الصيحات وأصوات أخرى قادمة من خلف الجدار المقابل..

يلتفتُ الشابّ الجالس على ركبتيه وراء باب الغرفة ناظرًا من ثُقبِ الباب إلى الآخر الجالس أمام الزجاج العاكس، يُقهقه الأخير مشيرًا إلى الأوَّل أن

يَستمرّ في المتابعة، ترتفع الموسيقى.. تشتدّ شراستها.. تتسارع الخطوات.. تتراكض قطرات الزيت.. تتموَّج الأضواء على الجسد الخمريّ.. ويبدأ الاشتعال..

تدخلُ إلى المشهد امرأتان، تلمع بشرة جسديهما تحت الأضواء المتراقصة، تتوجهان ببطء إليها.. تلتقطان ذراعيها السابحتين حول جسدها المُتعَب، ترجعان بها إلى الحائط المغطّى بمرآة كبيرة.. تُثبّتان ذراعيها بحزامين من الجلد اللامع إلى الحائط.. ثمّ تُزيح إحداهما خصلات الشعر التي تغطّي عينيها.. تلقيان عليها نظرةً ثمّ تلتفتان إلى الشخص الجالس خلف الزجاج العاكس، وتذهبان..

يدخل في أعقاب المرأتين رجل ضخم البنية، لهُ بشرة باهتة اللون، تتدلّى من رأسه خصلات من الشعر الأسود الواصل إلى منبت العنق، تُغطّي صدرَه غابة استوائية ماطِرة، ويعقد حول رسغيه عدَّة أربطة جلدية، تتبعه امرأة أخرى تتراقص مرحًا على إيقاع الموسيقى الصاخبة، شقراء، قصيرة القامة، تزدحم الخلاخيل حول كاحليها، تصطكّ مع خطواتها، ويتدلّى من عنقها عِقْد متشابك يغطّي منطقة الصدر بالكامل.. يشتبك الاثنان أمام الجسد الخمريّ المربوط.. ثمّ يتوجَّهان إليها..

ملامحها الفارغة من كلّ شيء، لا تدلّ على أيّ شيء..

يتقاطع الأنين والعواء.. تختلط الدموع بالزيت.. يرتفع الحريق..

لحظات وينتهي العرض، ويستمرّ الدُّخَان..

* * * *

(٢)

منطقةُ غربِيّ المدينة..

شارع جانبي..

الطابق الثالث..

شقَّة من غرفتين..

الغرفة المغلقة في نهاية الرواق إلى اليسار..

طاولة جانبية يرقدُ عليها كلبٌ من الحجم الكبير..

أكوامٌ منَ الملابس المُلقاة لتُشكّل تلًّا فوق كُرسي في زاوية الغرفة..

طاولةٌ متوسطة عليها كثير من التفاصيل المزدحمة..

طاولة أخرى صغيرة وُضِعت عليها رُقعة شطرنج رُتِّبَت القطع عليها بشكل عشوائيّ ودون وجود للملِكَين..

فتاة في بدايات العِقد الثالث من العمر، نائمة على كرسيّ ضخم من طراز قديم نسبيًّا..

ترتدي سُترة مُقلَّمة طويلة بعض الشيء..

رباطٌ من الخيط الأسود حول الرُّسغ الأيسر..

ورائحةُ حريق..

* * *

obeikan.com

أنتَ الآنَ وحدكَ، تقف والذُّعر ينبعث من كلّ تفصيلة صغيرة في رُوحِك، مُتلفّتًا وسط بناية تحترق، ينهار السقف وتهوي الأبواب والنوافذ من حولك، تتكاثف غيوم الدُّخَان الداكنة، بحيث لا يُمكنك تمييز المخارج التي صارت تغطِّيها ألسنة اللهب تارةً، والدُّخَان تارة أخرى، فأغمضتَ عينيك وغطيت أنفك وأسرعت تُلقي بجسمِك في الحريق راكضًا لتحاول النجاة بنفسِك، ثمّ اكتشفتَ بمرور الوقتِ أنّكَ لم تخرجْ سالِمًا كما كان يُخيَّل إليك، فالدُّخَانُ قد التصق بكَ متشبّثًا بتفاصيلِكَ، حتى أصبحتَ كأنك أنت من يضطرم به الحريق..

هل حدثَ لكَ ذلكَ ذات يوم؟ بماذا ستشعر إذا حكى لك أحدهم أنه قد مرّ بذلك؟

هكذا هو الأمر إذن، السماعُ بالشيء، شيءٌ آخَر، شيءٌ بعيدٌ كُلَّ البُعد عن المرور به!

* * *

لا بدّ أنّها قد تَخَطَّت السابعة مساءً.

استيقظتُ دونَ سبب. نمتُ رغمًا عني، لذلك لم أفكِّر في تشغيل جهاز التنبيه. لم يكن نومًا، كان عَرْضًا لا نهاية له من الكوابيس المتلاحقة. استيقظتُ وقد فقدتُ الأمل في الخروج من هذه السلسلة الدموية من الكوابيس، كان النُّعاس قد غلبني بعد ظهر اليوم. نمتُ جالسةً على الكرسيّ، لأستيقظ بعد وقت الغروب بنحو ساعة كاملة.

ولا يزال الدُّخَان ينبعث حولي من كلّ شيء..

* * * *

(٣)

أشعلتُ سيجارةً، وفحصتُ هاتفي المحمول، كإجراءينِ اعتياديَّين، لأجدَ تسعةَ اتصالاتٍ في أقلَّ من ساعة، وخمس رسائل. جميع الرسائل وسبعة اتصالات من أرقامٍ لا أعرفها، واتصالان من سميرة. لم تسبِّب لي الرسائل والأرقام المجهولة أي نوع من التعجب أو القلق، قدر ما سببه لي اتصالَا سميرة، قلقٌ مَرَّ نحوُ ثلاثة أشهُر وأنا أحاول التخلُّص منه، دون فائدة..

* * *

لطالما كرهتُ النومَ في منتصفِ اليوم، الاستيقاظُ في الظلام، بالتحديد بعد أن تكون الشمس قد غادرت الأفق دونَ أن أحضُر ذلك الحدث اليوميّ المُهِمّ، كان هذا يجلبُ عليَّ جميع مشاعرِ الضيقِ، لا أدري لماذا بالضبط، ولكنهُ إحساسٌ تعوّدتُه، وتعلّمتُ أن أستعمل كلّ الاحتياطات لتجنُّبه، شعور يضطربُ بعده ما تَبَقَّى لي من اليوم تمامًا، ضيق مُطبِق، وقلبٌ منقبضٌ عاصف بالضجر والرغبة المُلحَّةِ في الانسحابِ والابتعادِ عن كلّ الناس..

ربما هو الخوف من مشهدِ الليلِ المفاجيء، ذلك الظلام الذي فاتتني كلّ مقدِّمات هجومه، أو ربما هو شيء يرتبط بالطفولة، عندما كان يتحتَّم علينا النوم في منتصف اليوم، فقط لأنّ الوالدين يقدِّسان ذلك التقليد الغريب "القيلولة"، وليَضْمَنا قيلولةً هادئة فلا بدّ أن يُجبِرانَا على النوم

مثلهما، لذا فقد كان الاستيقاظ على هذا الظلام مرتبِطًا بشكلٍ كبيرٍ بذلك القهر غير المبرَّر..

* * *

نهضتُ أقاوم الترنُّح والعَمَى المؤقَّت جَرَّاء ضغط الدم المنخفض. تمشّيت ذَهابًا وإيابًا في الممرّ بين الكرسيّ والطاولة التي تزدحم بعدَّة أكواب، بعضها تملؤه سكاكين وأدوات معدنية وخشبية، كوب لأقلام الرصاص والحبر، كوبان للفُرَش مختلفة المقاسات، إناءان يملؤهما ماء عَكِر، بعض الخِرَق المستعملة، في منتصف الطاولة توجد ثلاث كُتل من الطين، إحداها كانت مشروعًا لم يكتمِلْ.

ما أكثرَ الأحلام التي تموتُ قبل أوانها!

بجوار الباب يوجَد السرير الفرديّ الذي يلتصق به مكتب تراكمت عليه مجموعة من الأوراق، دعوات لحضور بعض الندوات، معرض فنّ تشكيلي مشترَك، إعلان عن حفلة موسيقية غربية، إصدارات تعود إلى عامٍ مضى كإهداءات من بعض الرفاق: شِعر، رواية، قصص قصيرة.. أُلقيَت فوقها سترة كنتُ ارتديتها آخر مرَّة خرجتُ فيها ولم أُعِدها إلى مكانها، منفضة سجائر وثلاث علب كبريت فارغة، ومجموعة لا بأس بها من علب التبغ المنتهية كدليل إدانة في الغالب إذا زارني أحد الأصدقاء الناصحين المهتمّين بالصحة..

فكّرت في الخروج إلى أي مقهى أو حتى للتمشّي قليلًا، ولكنني يبدو أنني نسيتُ كيف كنتُ أقوم بذلك، كيف كنتُ أرغب في الخروج من المنزل، وكيف كان يبدو مُعظَم عاداتي للاستعداد للخروج، إضافة إلى أنني ذلك

الشخص الذي لا يُفضِّل التعرُّض لنظرات الناس الفاحصة، خصوصًا في مثل هذا الوقت من التشوُّش والهشاشة، بالتأكيد لم يكُن في وسعي الهروب إلى العمل على قطعة النحت التي بدأت فيها منذ زمن، لا يُمكنُ للقلبِ المهزوز أن ينفخَ الروح في مولود جديد، سيُولَدُ مشوَّهًا ضائعًا يُشبهُ والدَه إلى حدٍّ كبير. قد أستطيع الهروب إلى القراءة، كنتُ قد بدأت منذ مساءَين قراءةَ رواية أجَّلتُ قراءتها أكثر من مرَّة، "مُذَلُّونَ مُهانون" لدستويفسكي، ولكنني توقفتُ عند نهاية الفصل الأول، لَكَمْ أرهقتني تلك البداية! شعرتُ كأنّني كنت هناك في المقهى الصغير، قرب النافذة، حين مات الكلب آزور وتَمدَّدَ إلى جوارِه صاحبه العجوز الذي لَحِقَ به بعد ساعاتٍ قليلة ليصحبَهُ ثانيةً، إلى رحلة أبديَّة.. عدميَّة.. تليق تمامًا بهذين الصاحبين البائسين...

وبذلك لم تُفلحْ أيضًا محاولة القراءة، لذلك بدأت فكرة الخروج تلقى استحسانًا عندي، خصوصًا وقد كانت رائحة الدُّخَان تغلّف كلّ أرجاء المنزل، وتغلّفني أنا بشكل أكاد أُصدِّق معه أن حريقًا ما يقترب في كلّ لحظة منّي..

ذهبتُ لكي أتفقَّد النوافذ والشرفات. عمّ مصباح يجلس على كرسيّه يقوم بعمله الدائم في حراسة العقار الذي أسكن فيه، يستمع إلى جهاز الراديو الصغير، والشارع خالٍ تمامًا من المارَّة، الطريق آمنة كما يبدو..

لا بدّ من ذِكر أن هذه هي المرَّة الأولى التي فكّرت فيها جدّيًّا في الخروج من منزلي بعد الواقعة، هذا يعني أنني لزمتُ المنزل ما يزيد على شهرين، الأمر الذي تَجَلّت آثاره عندما بدأت البحث عن شيء لأرتديه سريعًا، دائمًا كنت أُفضّل الملابس السهلة، تلك التي تقفز في داخلها دون عناء وتقفز

خارجًا منها كذلك، لا شيء أقرب إليّ من بنطال (لا أفضل قماشًا معيَّنًا، بنطلون مريح لا أكثر ولا أقلّ) وقميص فضفاض مقلَّم طوليًّا أو عرضيًّا أو إلى مربَّعات، المهمّ أن تكون أزراره من النوع الجيّد والمثبَّت بضمير يقِظ، فلا ينكسر بسهولة ولا ينخلع بسهولة، لأنني لن أُبدِّل الزرَّ المكسور أو المخلوع تحت أي ظرف كان. لم أكُن أعلم أن ملابسي كلّها متشابهة إلى هذا الحدّ!

انتهيت من ارتداء ملابسي، لبستُ حذائي الأرضيّ، لا أتذكر إن كان لديّ آخَرُ صالح للاستخدام، لكن لا بأس، رفَعْت شعري كلّهُ وعقدته في شكل كرة صغيرة منتفخة أعلى الرأس، التقطتُ مفاتيحي وهاتفي وعلبة تبغي والكبريت، ومشيتُ ناحيةَ باب الخروج. وقفتُ أنظر حولي، ثمّ عدتُ لفحص الشارع من النافذة ثانيةً، جلستُ على كرسيٍّ جوار باب الخروج، أهزُّ سلسلة مفاتيحي التي تنبعث منها ضوضاء تعوق وصول التوتّر إلى قلبي أكثر من ذلك. كنت في حاجة إلى صوت آخَر، صوت يعلو على أصوات مجموعة من المجانين المجتمعين داخل رأسي يتجادلون وقد انقسموا بين موافق على فكرة الخروج وناقم على الفكرة يحذّرني ويتوعّدني إن أقدمتُ بالفعل عليها. كانت الجَلَبةُ التي تصدر عن اهتزاز سلسلة المفاتيح في يدي تقوم بهذا الدور، تشدّني بعيدًا عن ذلك الشجار الذي احتدم داخلي.

قرار ربما لا يوجدُ أتفه منه، أخرج أو لا أخرج. بعض القرارات أبسط من أن يبذل طفل صغير أدنى جهد للتفكير فيه، لكنّه يستعصي كثيرًا على القلب الضعيف.

عدتُ إلى غرفتي، والتقطتُ كرة الراكيت التي أحتفظ بها في دُرْج المكتب دائمًا، أخذتُ أقذفها إلى الحائط وألتقطها وأنا أقف قبالة الشرفة وأهزّ باليد الأخرى سلسلة المفاتيح. وأخيرًا قذفتها للمرَّة الأخيرة فارتطمت بالحائط ولم أنجحْ في التقاطها، عادت تتقافز ثمّ تدحرجت، ظللتُ أُتابعها حتى استقرّت على الأرض.. ثمّ حملتُ نفسي سريعًا وذهبت..

* * *

كنتُ بين الحين والآخَر أُعيد النظر إلى اتصالَي سميرة، ثم أُعاودُ إطفاء الهاتف، لم أجرؤ على مجرَّد التفكير في إعادة الاتصال بها، فمجرَّد النظر إلى اسمها على الشاشة كان يُعيد إلى عينَيّ جميع المشاهد مرَّة أخرى، كنت أُغمض عينَيّ بقوَّة كي لا أرى، كي لا أتذكَّر. كيفَ إذن سيكون سماع صوتِها، علاوةً على أنّه لا يُمكنُ منطقيًّا أن تتصل بي سميرة من الأساس؟!

* * * *

(٤)

كان الليلُ ينزل بكلّ جلالِه، يزحف ويستقرّ بهدوء على الشوارع، واصلتُ المشي في شارعٍ طويل، ترتفع على جانبه البنايات فجأة وتختفي فجأة، ويخلو الجانب الآخر من أيّ بناء، كانت منطقة مرتفعة عن سائر المدينة، تبدو المدينة من ذلك الجانب بعيدة بأضوائها الكثيفة مختلفة الألوان، بريقها لا يشبه حقيقتها، تشبه مصباح الإضاءة الذي يشتعلُ من داخله حتى يراه الآخرون، مضيئة بشكل مبالَغ فيه، لكنها لا ترى شيئًا ممَّا يدور في شوارعِها الضيقة، لا تعرف شوارع الموتي التي تحيط بها من كلّ اتجاه، والأهمّ أنها ما زالت لا تدري شيئًا عمَّا حدث منذ نحو ثلاثة أشهر في بقعةٍ هامشيَّة على جانب المدينة، بالتحديد في ذلك الشارع المعتم - أو ما يُسمّى مجازًا شارِعًا ربما لتخفيف الألم عن ساكنيه - إلا أنه لا يكاد يبلغ رواقًا في بيتٍ من بيوتِ المدينة الغافلة، مدينةِ ذوِي البيوتِ المضيئة والسيارات صاخبة الصوت..

* * *

استمرّت رحلتي للتخفُّفِ والمشي الصامت، حتى سَرَت على طول ظهري قشعريرة فزع على أثر رنَّة صدرت من هاتفي، كانت الضوضاء التي تصدر عن سلسلة مفاتيحي التي أهزّها بيدي خلال مشيي كفيلة بأن تجعل أذني تتعوّد صوتها الرتيب، لذلك كان ارتعابي من صوت رنَّة الهاتف مُضاعفًا،

توقّعتُ أن تكون هي المتصلة مرَّة أخرى، صوتها سيبعثُ كلَّ شيءٍ حيًّا من جديد، لكنني لم أعُدْ أقوى على مراجعةِ تفاصيل ما حدث أكثر من ذلك..

نظرتُ رغمًا عني إلى شاشةِ الهاتف، ربما هو الفضول أو غير ذلك، لا يُهِمّ، المهمّ أنه القدر الذي يُفلح أحيانًا في إرسال هدايا غير متوقَّعة، كان الشخص المناسب في الوقت المناسب..

لماذا نخطئُ في حقِّ أنفسِنا كثيرًا وننسى من يستحقُّون التذكُّر!

* * * *

obeikan.com

(٥)

- حسن، إنتَ فين؟

- أنا خرجت من الشغل بقالي شوية، خير؟ إنتي كويسة؟

- أنا بخير، ينفع أشوفك؟

- فعلًا؟ يا ريت.

- آه فعلًا، أنا برَّة البيت.. نُص ساعة أكون في المكان بتاعنا، استنَّاك هناك؟

- أنا هناك أصلًا.. مستنيكي.

- تمام..

وصلتُ إلى المقهى بعد أقلَّ من نصف الساعة. كنتُ أعتاد ارتياد هذا المقهى في طريقي من أو إلى عملي أو لملاقاة حسن. لا أعتقد أنني أرتبط سريعًا بأماكن معيَّنة، غير أنّ ما يُميّز هذا المكان بالنسبة إلَيَّ من سائر المقاهي، هو أنّه يقع في شارع يمشي فيه جميع الناس، ليس شارعًا تحتكره فئة معيَّنة، إضافة إلى أنّ الموسيقى التي يشغِّلونها فيه، تلائمني كثيرًا، موسيقى تشبهُ هذه المدينة، غارقة في الحزن، لكنّها طموحة، مقهورة وحالمة، مهتزة وصادقة. من السهل أن تشاهد التاريخ يصنع المستقبل حين تتأمل وجوه العابرين من هنا وهم يحملون ميراثَ السنين

على أكتافهم دون أن يمتلكوا حقّ الرفض أو الموافقة، والمأساة تبدأ حين يولدُ المرءُ ليجدَ نفسهُ محكومًا عليه بالسقوطِ إلى الأبد، خاسرًا في معركة لم يخُضْها، وميّتًا لأنه لا يملكُ ثمنَ الحياة.

* * *

توجهتُ للطاولة التي كان يجلس إليها حسن صديقي المُقرب، يعملُ مُخرجًا مسرحيًا لفِرَقِ المسرح الجامعيَّة إلى جانب وظيفة في شركة صغيرة تضمن له شيئًا من الكرامة على أي حال. موهبة فذَّة لن تلتفت له المدينة القبيحة كغيره من الكثيرين الذين ما زالوا يُصدقون قداسة الفنّ والمعرفة. شاب تجاوز الخامسة والثلاثين، لا يُشبه الصورة المُتخيَّلة عن الفنان المجنون، كلّ ما في الأمر أنّ عينيه لهما نظرة خاصَّة، نظرة كاشفة، وفي نفس الوقتِ محيّرة إن لم تكُن تعوّدت عليها، طويل القامة، نحيل البنية، بشرته تميل إلى السُمرة، يحافظ على طول لحيته القصيرة التي أتخيّل أنني لن أستطيع التعرّف إليه إن حلقها يومًا، قرّر منذ عامين خطبة فتاة كانت تساعده في الإخراج، كان يُحبها منذ سنوات، وانتهت الحكاية نهاية مأساوية بسبب الظروف الماديَّة كالمعتاد، لا إخوة له، والده تُوُفّي منذ عدَّة أعوام بعد فترة مرض قصيرة بالسرطان، ووالدته مسنَّة تُقيم معه في شقة قرب وسط البلد.

هناكَ أصدقاء لا يُشبهونك، ترتبطُ بهم لهذا السبب الخاص، التناقض، أحيانًا ما يكون التناقض سببا مهمًا للانجذاب والتقارب.. لكن حسن، كان هو الصديق الذي يُشبهني كثيرًا، كان من ذلك النوع من الأصدقاء الذي يُمكنه أن يراك من الخارج والداخل بصورة هي الأقرب إلى

الحقيقة، يراك كما لا يراك سواه، ويعرف عنك ما لا تعرفه أنت نفسك عن نفسك..

* * *

بعد التحيَّة واللوم على فترة انقطاعي الطويلة، ومحاولاتي لإقناعه بأنها كانت فترة ضرورية بالنسبة إلَيَّ، ساد صمت قصير تأمّلني فيه قليلًا، ثمّ بدأ الحديث:

- مش هسألك ليه خرجتي دلوقتي بالذات، شكلك باين عليه إنك أحسن..

- أكيد أحسن طبعًا.. بس في حاجة كدا.. مش فاهماها

- حسّيت بكدا من ردّك عليا لما كلّمتِك، إيه اللي حصل؟

انتظرتُ لحظة، حتى أبحث عن نبرة صوت تناسب ما سأقوله، بحيث لا يبدو عليّ الفزع، ولا يبدو عليه هو التعجب الذي ربما يجعل منَّا نقطة تحول لأعين الجالسين:

- بُص، أنا مش عارفة ازّاي.. بس.. سميرة كلمتني مرتين النهاردا

- مين؟

- سميرة..

- إزّاي يعني؟ دا هزار يعني والا إيه؟

- شكلي بهزر يا حسن؟

فتحت شاشة الهاتف ليظهر له على الشاشة اتصالان من سميرة، أحدهما في الساعة الرابعة وخمسين دقيقة، والآخر عند السادسة

تمامًا، حدّق إلى الشاشة وراجع سجِلّ المكالمات، ثمّ أطفأ شاشة الهاتف متنهّدًا وناظرًا من حوله كالذي يبحث في الفضاء عن تفسير أو تعقيب على الأقل:

- وبعدين بقى؟ ما هو مش ممكن.. أكيد حد بيستعمل رقمها..

- ممكن..

- مالِك؟ إنتي أكيد مش ممكن تكوني بتفكري في حاجة تانية.. هو دا الظن المنطقي الوحيد على فكرة

- مش عارفة، بس انت متخيل إن سميرة تتصل بيَّا النهاردا.. بعد تقريبًا تلات شهور، دا ممكن يخليني ابقى عاملة ازّاي؟

- مش هيّ يا بنتي، ازّاي تكون هيّ؟! زين بقولك إيه، إنتي ليه مبتغيريش رقم تليفونك؟

- أنا مابحبش أغير رقمي، ومش هغيره على فكرة، خلاص انسَ بقى.. أكيد فعلًا حد بيتكلم من رقمها وطلبني غلط!

ابتلعَ تمسّكي بمبدأ لم يكُن ليقتنع به بأي حال، حتى لا يُزيد من توتّر الموقف، صمتنا كلانا لبرهة، ثمّ تحدثنا سريعًا حول عمله، وبعض الأصدقاء، كتفريغ لشحنة التوتّر المهولة التي باتت تملأ المكان وتصدر عن عقلينا اللَّذين لم يتوقّفا عن التفكير في تلك المفاجأة غير المنطقية، بدأتُ أشعرُ أنني أريد أن أذهب، ففهمَني بسرعة:

- بيتهيألي تروّحي ترتاحي، أنا كمان عندي شغل بدري..

- فعلًا أنا محتاجة أروّح، يمكن أشتغل شوية وانام..

خرجنا من المقهى، وانتظرنا قليلًا قبل أن يوقّف سيَّارة أجرة، قائلًا:

- خدي بالك من نفسك من فضلك،

وخلّيكي عارفة إنك ماكانش ممكن تعملي حاجة اكتر من اللي عملتيه، اللي بينتهي بيهم المطاف في مدافن الرحمة، مابيشوفوش الرحمة في الدنيا دي من حدّ لا قبل ما يتدفنو ولا بعد كدا..

- مش يمكن مايكونوش اتدفنو أصلًا يا حسن.. عمومًا حاضر.. ابقى كلمني

ركبتُ السيارة مشيرةً إليه من وراء النافذة.. وذهبْت..

* * * *

(٦)

لم تستغرق رحلتي للعودة إلى المنزل وقتًا طويلًا، بدّلتُ ملابسي، فتحتُ درج المكتب، أخذت مضرب الراكيت، ونجحت في العثور على الكرة بعد أن كانت تدحرجت تحت طاولة الشطرنج. استلقيتُ على سريري ساندة ظهري إلى الجدار، وبدأت في تصويب الكرة إلى الحائط المقابل، إن أخطأتُ في تلقّي الكرة بالمضرب سيأتي بها صاحبي على كلّ حال، أو لن يأتي بها، لا بأس لم أعُد أتابع مصير الكرة منذ آخر مرَّة حملَها وهو يلهثُ ويهزّ ذيلهُ وأتى إليّ بها..

لا بدّ أنّ حسن لم يكتفِ بالنصيحة العابرة، لذلك عندما كانت الساعةُ قد أوشكت أن تدقّ معلنةً منتصف الليل، رنّ جرس الباب، كانت أمينةُ. فهمتُ أن حسَن هاتفها للمجيء وقضاء الليلة معي، بدا عليها أنها قلقت بشدة، فلم تمتلك الوقت الكافي لاختيار ملابسها بدقّتها المعتادة..

* * *

أمينة صديقتي منذ سنوات، كنا نعمل في شركةٍ واحدة قبل أن أنتقل للعمل في مكان آخر. تكبرني بخمسة أعوام لذلك تحترف لعب دور الأمّ في حياتي، تزوّجت تقريبًا منذ عشرة أعوام بشاب ربطتها به قصة حبّ سينمائية دامت فترة زمنية طويلة. أمٌّ مثالية لولدين وسيمين: سليم وحمزة. تُعاني كثيرًا من أمراض الزواج المتعارف عليها في عالم معشر

الأزواج والزوجات، ولكنها ما زالت تُناضل باسم الحب والبيت السعيد.. جميلة، جميلة حسب مقاييسي الشِّعرية، تمتلكُ قلبًا شفافًا، حتى إنك يُمكنُ أن تتعجّب لقلَّة أمراضها النفسية مقارنة بغيرها ممن صادفتهم منذ زمن طويل. نختلف كثيرًا حول عدد من الآراء والميول حتى أصبح من الضروريّ أن تحدث بيننا المشادَّات والعراكات الخفيفة بين الحين والآخر لتبقى هذه العلاقة القويَّة بيننا على قيد الحياة. نختلف كذلك في أغلب الصفات الجسدية بدرجة كبيرة، فأنا أمتلك بشرة قمحيَّة، وربما تميل إلى السمرةِ، وهي ضاربة إلى الحُمرة حدّ أنني كنت أرى بشرتها شفافة، هي تقترب بشدَّة إلى الملامح الأوروبية، وأنا أناقضها في ذلك تمامًا، اهتماماتنا تلتقي أحيانًا، وتتنافر أحيانًا أخرى، أذكر أننا لم يدُر بيننا أي حوار عن الفنّ يومًا ما، الأمر الذي يجعلني أتعجّب أن أول اهتماماتي لم تكُن تمثّل لها شيئًا على الإطلاق..

جلسَتْ ووجهها المخضّب بالحُمرة قد اشتدّ احمراره هذه المرَّة، لم تُحوّل نظرتها عنّي منذ أن فتحت الباب لها، الأمر الذي كان يُزيد من ارتباكي واضطرابي كثيرًا، حاولتُ أن أُشتّتَ نظرتها بشتّى الطُّرُق، فكنتُ أُثرثر كثيرًا وأضحك كثيرًا، حتى قاطعتني:

- وبعدين؟

- وبعدين؟

(كرّرتُ سؤالها وأنا لا أزال أضحك).

- إنتي ليه عايزة تموتي؟ ليه مش عارفة تفهمي إنك مالكيش دعوة باللي حصل؟ أراهن إنك بتفكر تنتحري.

- إنتي عارفة إن دا مايجيش على بالي أصلًا.

- أيوة، أيوة.. صحّ.. كلّ دا ومايجيش على بالك.. يا بنتي أنا من ساعة ما رجعت من السفر ما شفتكيش غير تلات مرات، مابتخرجيش من البيت بقالك شهرين تقريبًا، حتى حسن مابتشوفيهوش، ممكن أكلّمك أكتر من خمس مرَّات عالتليفون مابترديش ولما تفتكري ممكن تكلميني بعدها بيومين مثلًا.. إنتي مش شايفة إنتي بقيتي عاملة ازّاي؟ دانتي شكلك مابتاكليش ولا بتشربي، طبعًا عايشة عالسجاير والقهوة، هتموتي على فكرة بجد.. إنتي اتغيرتي يا زين، اتغيرتي كتير، بس التغيير دا مش ممكن يكون للأحسن.

- إيه دا كلّه، مش للدرجة دي يعني.. أنا كويّسة فعلًا، كويسة جدًّا كمان، بس هي فترة كدا وخلاص عدّت.. تيجي نغيّر الموضوع بقى؟ شغلك عامل إيه؟

ظلّت تنظرُ إليّ بعينين خائبتي الرجاء، ثمّ تنهّدتْ مجيبة:

- تمام.. باشتغل يومين في الأسبوع من البيت..

- طيب كويّس أوي..

- صحيح.. في حد كلّمك؟

(يبدو أنّ حسن بئر الأسرار العميقة قد انفتح الليلة لأمينة).

- حدّ مين يعني؟

صمَتَتْ قليلًا، كالتي ندمت على السؤال، ثمّ تابعَتْ:

- سميرة مثلًا؟

وقعَ الاسم موقع الرصاصة على قلبي، بالرغم من أنني توقّعت أن حسن أبلغها عمَّا دار بيننا، لكنّني ارتجفتُ رجفةً شديدةً، وارتعدت ملامحي بشكلٍ كان ملحوظًا إلى الحدّ الذي استغربتُ له أنا نفسي، صمتُّ قليلًا، ثمّ استجمعتُ نفسي وهززتُ رأسي مستفهمةً:

- بتسألي ليه؟

- عادي.. بطّمِن بس..

- اتصلِت بيا مرّتين النهاردا، بس أنا كنت نايمة.

- ماتصلتيش إنتي بيها تاني؟

- لا.

- ليه؟

- إيه التحقيق دا؟ بقولك إيه.. وحياة أبوكي يا أمينة أنا مش عايزة أتكلم.. شوفي أي حكاية تانية نحكي فيها، أو قومي روّحي أحسن..

- طيّب.. طيّب.. خلاص، تيجي نشرب أيّ حاجة، عندك حاجة في الصحرا دي تتشرب والّا إيه؟

- آه فيه قهوة وشاي..

أحضرَت فنجانَي قهوة، وجلسَت إلى جواري، أمسكَتْ يدي، وأطالت النظر إليّ، لم أكن أنظر إليها، كنتُ أشعر بنظرتها، كانت تخيفني قليلًا، نظرة أموميّة جدًّا، حنونة لكنها مخيفة أحيانًا..

- زين.. أنا عارفة إن الحكاية مش سهلة، وانتي مش الشخص اللي يعدّي بتجربة زي دي ويطلع منها بسهولة، بس فعلًا اللي حصل عادي ويمكن يكون بيحصل كل يوم وماحدش يسمع عنه..

قاطعتها بحدَّة: "عادي! عادي يا أمينة؟".

- مش عادي، أنا آسفة، اللي حصل كان صعب، بسّ خلاص اللي حصل حصل.. ننسى بقى، ننسى ونكمّل حياتنا، مش كدا؟

هززتُ رأسي وسَاد الصمتُ بعض الوقت، كنتُ أغرق في الفراغ الوسيع. الفراغ الذي كان يبتلعني ببطء في كل لحظة راحت تمرّ بي منذ تلك الليلة، كانت أمينة لا تزال تُمسكُ بيدي، وتُربّتُ ظهري، ثمّ انفجرت قائلةً كالتي تذكّرت ما تريد أن تقول:

- بقولك إيه.. أنا عندي فكرة.. إنتي عارفة إنّي ماعرفش لحد دلوقت إنتي عرفتيهم ازّاي؟ احكيلي بقى إيه حكايتهم من الأول سميرة و..و..

(انخفض صوتها وهي تنطق الاسم).. و.. رحمة..

التفتُّ إليها التفاتة قويَّة، كأنّ الاسم شدّ عنقي ناحيتها، ظللت أحدّق إليها لبرهة، وغامت عيناي، كأنني انسحبت فجأة إلى الوراء، إلى تلك الليلة بالتحديد، سحبتني التفاصيل كلها، كنتُ أرى المشاهد تتراكض بسرعة وراء بعضها متقطعة وواضحة.. كانت أمينة تشدّ على يدي مُتابعةً:

- لو مش عايزة خلاص.. بس بيتهيألي لما تحكي، دا هيكون حلّ كويس..

ألقيتُ برأسي على كفّيّ، وأطلقت زفرةً كادت رئتاي تخرج معها..

رحمة... وسميرة.. لقد عاد الدُّخَان مرَّةً أخرى!

* * * *

(٧)

ليس هُنالكَ أيّ سبيل للرجعة، ولذا فلا فائدة ولا طائل من الندم، أصبحتُ أُصدّقُ في ذلك بشدَّة، ولكنني أحيانًا كثيرة أجِدُني لا أمتلك القدرة على تطبيق الجزء الخاص بالندم.

كلما كانت تمرّ بي أزمة في الماضي، كنتُ أعلمُ يقينًا وأنا في داخلها أنه مجرَّد وقت وسيرجع كلّ شيءٍ إلى طبيعته. النسيانُ ممحاةُ القدر التي لا تفنى، تقوم بدورها في الغالب بشكل ممتاز.. غير أنني هذه المرَّة، لا أعتقد أنّ الزمن والنسيان سينجحان في إخراجي من هذه الدوَّامةِ القاسية..

منذ عامٍ تقريبًا أو ما يزيد على العام ببضعة أسابيع، كان يوجد في طريقي للعودة من العمل متجر أدوات مكتبية (مكتبة) كنتُ أحيانًا أتوقّف لشراء بعض الأدوات من هناك.كانت تعملُ في تلك المكتبة فتاةٌ في مساعدة الزبائن. وكالمعتاد نشأ بيننا تعارف سريع، فتاة طيبة، متعاونة، وعلاوة على ذلك فإنّ لها ابتسامة دائمة، كانت شديدة السُمرة، نحيلة البنيان، بسيطة الهندام، غير أنها تُحسن ترتيب الألوان.. "اسمك إيه؟"، سألتُها بعد أن سألَتْني عن عملي، بسبب حضوري المتكرر إلى المكتبة في حين أن مظهري لا يشي بأنني قد أكون ما زلت في مراحل الدراسة.

كانت تُدعى سميرة، تعمل في هذه المكتبة منذ عام حتى تلك اللحظة، والمفارقة أنها لم تتلقّ أي تعليم أساسيّ أو دراسة، لا تعرف القراءة.

تعرف كيف ترسم اسمها بطريقة طفوليَّةٍ جدًّا، ولكنها إذا رأتهُ مكتوبًا بخطٍ من الخطوط الفنيَّة فإنها لا تستطيع التعرّف إليه! لفتَ نظري أنها دائمًا ما كانت تربط حول رسغها رباطًا أسود، أشبه بخيط سميك، لكنه مغزول، سألتها عنه ذات يوم من باب الفضول، فقالت إنها تعوّدت ذلك، وأنّه "خير"..

كنتُ إذا دخلتُ إلى المكتبةِ بحثتُ عنها بعينيّ سريعًا، فإذا هي تهبّ لمساعدتي على الفور..

إلى أن مررتُ بالمكتبة ذات يوم لشراء سكّين عريض، وبعض الشفرات، بعد أن ضاع كثير من أدواتي خلال عملية الانتقال من منزلي القديم. كان يومًا مزعجًا حافلًا بالمشادّات في العمل، وكنت بصدد اتخاذ القرار النهائي، إما بالمشاركة وإما عدمها في معرض مشترك تُقيمهُ مجموعة من الأصدقاء، لذلك لم أكُن في حالتي التي تعوّدَت سميرة أن تراني عليها.

دخلتُ إلى المكتبة وتوجهتُ مباشرةً إلى أرفف الأدوات والعُدَد، لم أبحث عن سميرة كثيرًا تلك المرَّة، حتى وجدتها تحييني وتحاول حمل المشتريات عنّي، سمعتها تتحدث إليّ في جمل قصيرة، لكنني لم أنتبه لكثير من كلامها، أخبرتها أن يومي كان سيئًا، واعتذرت لها لأنني على عجلة من أمري، فهزّت رأسها وتمنّت لي حظًا طيبًا ثم أخرجت من جيب سترتها رباطًا أسود كالذي تربطه حول رسغها، وقالت:

"أوّل ما تربطيه على إيدك، ربنا هيفتح عليكي أوي وهتلاقي خير كتير!"، تبسّمتُ لها امتنانًا، وشكرتها بشدَّة وذهبْت..

* * *

في المساء، ارتديت سُترة العمل المُقلّمة، وجلستُ قبالة المنحوتة التي أعمل على إكمالها، كان "صاحب" ما زال مستلقيًا تحت النافذة، رفعَ رأسه وألقى عليّ نظرةً كالذي يتأكد من أنني موجودة بالفعل، ثمّ قفزَ ساندًا قائمتيه الأماميتين على رُكبتيّ وبدأ في المطالبة بعناق ومداعبة.. ربّتُّ رأسهُ ومسحتُ على ظهره حتى تكوّم مرَّةً أخرى جواري..

بدأت في تعديل بعض التفاصيل، كانت جِذعًا مقطوعًا لشجرةٍ عريضةٍ، ينبت من منتصف القطع العرضيّ للجذع جسم آدميّ، لا يظهرُ من الجسم الآدميّ سوى ذراع تُمسك الجذع محاولةً الخروج عنه، وتظهرُ معه الكتِف وجزء صغير من العُنق التي تبدو عليها العروق النافرة.. شعرتُ بالحاجة للنظرِ إليها عن بُعد.. فكلّما ابتعدنا عن الشيء رأينا عيوبه التي لم نكُن نستطيع إدراكها عن قُرب..

غسلتُ يديّ في ماء كنتُ أضعه لذلك الغرض في إناء على نفس الطاولة، جلستُ على حافة المكتب المقابل، ارتشفتُ قليلًا من قهوتي الباردة كالعادة، ونظرتُ للرباط الأسود الذي أعطتني إياه سميرة، أمسكته متأمّلةً إيَّاه ثمّ ربطته حول رسغي الأيسر. لم يكُن غريبًا عليّ ارتداء شيء بهذا الشكل، فعادة ما أربط بعض الأربطة حول رسغَيّ، وكنتُ بالفعل وقتها أرتدي رباطًا معدنيًّا، وآخر من الخيط المُطعّم ببعض الأشكال الجلديَّة حول اليد اليُسرى، وآخر يشبه السلسة إلى حدٍّ ما حول الرسغ الأيمن. الغرابة كانت تكمن فيما قالته سميرة عن أنه يجلب الخير.. ربطت الرباط الأسود حول رسغي الأيسر ونقلت الرباطين الآخرين إلى الرسغ الأيمن، لا أدري لماذا فضّلتُ أن يظلّ وحده لا تزاحمه أربطة أخرى.

سرحتُ قليلًا، فإذا بصوت سميرة يرنّ في أذني بجملة لم أنتبه لها إلا في تلك اللحظة، "النهاردا آخر يوم ليَّا هنا، أهلي عاوزيني أرجع البلد واشتغل هناك..".

أحيانًا يحدث هذا، تتحدث مع أحدهم ولكنك تسمعه بالجزء الخطأ من دماغك، فتعود بعد ذلك لتتذكّر أجزاءً من الحوار وتتعجب، متى قيل لي ذلك الكلام! بل أحيانًا تتصوّر أن الحوار برمّته كان حُلمًا..

غير أنّ جملة سميرة لم تكُن حلمًا، كانت واقعًا لم أُعِرْه الاهتمام الكافي..

تركَتْ سميرة العمل بالفعل، وفي زيارتي التالية للمكتبة لم تكُنْ هناك لمساعدتي ولا لتحيتي.

كانت فتاة طيبة، تعطي المكان طابعًا خاصًا بكلّ صدق!

* * * *

(٨)

مرّتْ ثلاثةُ أشهُر، كانت أمينة قد سافرت لتلحق بزوجِها الذي سافر للعمل في إنجلترا منذ عام تقريبًا. وكنتُ قد اشتركتُ بالفعل في المعرض. في طريقي للعودة بعد الافتتاح، توقفتُ حين أُضِيئت علامة المرور الحمراء، كنتُ أنظر للرباط الأسود حول رسغي وأتذكر ما قالته سميرة عن أنه سيجلب الخير.

رنّ جرس الهاتف كانت إيمان عزمي، واحدة من المشاركات في المعرض، شخصيَّة من تلك الشخصيات التي لا يمكنك الوقوف على مشاكلها الحقيقية، لا تدري إن كانت تعاني من سذاجة ما، أو أنها تمتلك قَدْرًا لا بأس به من الخُبث، الخلاصة أنها من الشخصيات غير المريحة، إضافة إلى أنّها على علاقة وثيقة بدكتور "ممدوح سيَّاف"، رئيس قسم النحت في كلية الفنون، أحد أثرياء المدينة بالوراثة، كما يُقال عنه، وعضو في مجلس إدارة الشركة القابضة التي أعملُ أنا بها، واحد من أكثر الشخصيات المعهود لها بالانتفاخ الذاتي المفرط والغباء الاجتماعي المزمن، فضلًا عن نظراته الفضولية المريبة في كثير من الأحيان، وسُمعته التي تُشبه قطعة القماش المهترئة..

- آلو.. إيمان.. ازّيك؟

- تمام، ازّيك إنتي يا زين، مشيتي بسرعة كنت عاوزة اتكلم معاكي..

- آه معلش، إنتي عارفة ماليش في جوّ اللقاءات والتصوير والحاجات دي.. خير طيّب قوليلي..

- شوفي يا ستي، في معرض سنوي للنحت، بيعملوه كل سنة في بلد، السنة دي هيعملوه في "براج" في التشيك، طلبو من دكتور سياف يختار كام اسم، اختارني واختارك واختار اتنين تانيين معانا، هو طلب مني أبلغك.. إيه رأيك؟

- لا دي عايزة تفكير، مش عارفة.. لازم أعرف التفاصيل وكمان....

فُتح الطريق فالتففتُ لدخول شارع جانبيّ يؤدي إلى الشارع الذي يقع به منزلي، لكنني توقفت سريعًا ورجعتُ بالسيَّارة للوراء حين رأيتُ فتاتين، تمسك إحداهما بذراع الأخرى، تلك التي كانت تتهالك ساقطةً على الرصيف..

- إيمان هكلّمك تاني.. سلام

ألقيتُ الهاتف على الكرسي الأمامي، وترجّلتُ من السيارة بسرعة، وهرعت إليهما:

- سلامُ عليكو، تحبّي أوصلكو مستشفى والّا حاجة؟ هي مالها؟

- وعليكم السلام.. لا، لا، مش محتاجة مستشفى.. معاكي ميَّا؟ أجابت الفتاة التي ما زالت تمسكُ بذراع الأخرى الجالسة على الرصيف:

- آه معايا.

ركضتُ إلى السيارة، جلبتُ الماء، وعدتُ إليهما، حاولنا مساعدة الفتاة على النهوض لتناول الماء، وما إن نجحنا في رفع رأسها حتى انفجرْتُ متعجبةً "سميرة!".

أصرَرْتُ على اصطحابِهما إلى منزلي، بعد أن فهمت أنهما لا ترغبان في العودة لمنزلهما ولا تعلمان أين ستذهبان. قدتُ ببطءٍ حتى وصلنا إلى المنزل، أعددت مشروبًا ساخنًا سريعًا لثلاثتنا، وجلستُ قبالتهما..

كانت سميرة تُلقي برأسها إلى الوراء ساندةً إياه على ظهر الأريكة، مغمِضةً عينيها، تتأوّهُ بين الحين والآخر، لاحظتُ بعض الإصابات على وجهها، آثار لجروح في كتفها الذي تمزّق جلبابها كاشفًا عنها، كانت تُمسكُ جانبها الأيمن طيلةَ الوقت، يبدو أنّ ألمًا مبرحًا كان ينبعث منه، ثم سقطَتْ عيناي على الرباط الأسود حول رسغها والذي كان مربوطًا لا يزال..

- بيتهيّألي لو ساعدناها تاخد دُش.. دا هيريّحها شوية (وجهتُ كلامي لصاحبتها).

- لا كتّر خيرك، مش عايزين نتعبك أكتر من كدا.. إحنا كدا كدا هنستنى بس النهار يطلع ونمشي.

- مفيش تعب ولا حاجة، بس دا فعلًا هيساعدها على الأقل تنام شوية.

ساعدناها على خلع ملابسِها، كان ظاهرًا أنها تعرّضت لضربٍ شديد، تبدو آثاره على جسدها كلّه، وكان الجانب الأيمن خصوصًا تختلط عليه الزرقة الداكنة والاحمرار حتى كاد يبلغ السواد..

ما إن جلسَت في الماء الدافئ، حتى لاحظْتُ تلوّن الماء بالدم، حاولنا تنظيف جسدها قدر المستطاع، ولكن الدم كان يستمرّ في الجريان في

الماء، لم أتبيّن مصدر الجرح تمامًا، بعد أن انتهينا، قمنا بتجفيف بشرتها وشعرها، وبدأنا في إلباسها ثوبًا نظيفًا أحضرتُه من غرفتي. لاحظتُ أنّ شعرَها كانت تفوح منه رائحة دخان.. ما هذا كله؟ ماذا تُراها قد فعَلَت لتتعرّض هذه المخلوقة المسكينة لكلّ هذا؟ ومن يمتلك الحقّ في تعذيبها إلى هذه الدرجة؟ ومن أين أصابتها رائحة الدُّخَان بالرغم من أنه لا يوجد أثرٌ لأي حرق على جسدها؟

أدخلناها بعد ذلك إلى الفِراش، ساعدتُها على ابتلاع قرصين من مُسكّن قويّ للآلام، قمنا بتغطيتها، وجلسنا جوارها بعض الوقت حتى بدا لنا أنها استغرقت في النوم..

كنتُ أنظر إلى شعرها الأملس، وإلى وجهها الذي تغيّرت كثير من ملامحه بسبب آثار الضرب، وإلى رباطها الأسود، كانت تمرّ عليها بعض التشنّجات بين الحين والآخر، تتحرّك عيناها سريعًا تحت جفنيها المُغمضين، وتهتزّ قدماها فجأة ثمّ تعودان للاستقرار..

يا لكثرة علامات التعجب التي تدور حولك يا سميرة!

* * * *

(٩)

مضينا للجلوس في غرفة المعيشة المهجورة منذ فترة، كانت الفتاة الأخرى تشبه سميرة في كثير من الملامح، عرفتُ بعد ذلك أنها شقيقتها، وأن اسمها رحمة..

أخبرتها كيف تعرّفتُ إلى سميرة، وأنها فتاة جميلة وطيّبة، وافقتني أنها طيبة وجميلة، وأضافت أنها مسكينة.. سألتها عما حدث، وما الذي جاء بهما إلى هنا بعد أن عادت سميرة إلى قريتهما كما كانت قد أخبرتني، كانت إجاباتها يبدو عليها كثير من الحذر، لم أتلمّس في كثير من كلامها الحقيقة التامة، قالت إن أخاهما الوحيد الذي يكبرها بعامين ويصغر سميرة بعام، هو الذي ضرب سميرة على هذا النحو، لأنها كانت تريد التوقف عن العمل في جمع المحاصيل في القرية، وإنها كانت تريد العودة إلى المدينة لعملها السابق. لم يُقنعني هذا السبب، فهو ليس سببًا كافيًا لكي يُعذب أخٌ أختَه إلى هذه الدرجة، وصفْتُه بالمجنون والمجرم، وسألتها أين أبواهما، وماذا عساها تُعدّ سلطة هذا الشقيق المخبول حتى يرتكب مثل هذه الجريمة، فأجابت أن الوالد كان متزوجًا من امرأة أخرى وأنه هجرهم منذ سنوات، وأن أمهما ضعيفة السمع والبصر تكاد لا تدرك ما يحدث حولها، بالإضافةِ إلى أنه فعل ما فعله بعد أن اصطحبَ الفتاتين إلى بيت شقيقتهم الكبرى والذي يقع هنا في المدينة، ولا يبعد كثيرًا عن منزلي، بحجة أنه أراد أن يجتمعوا ثلاثتهم للحديث في شأن سميرة لكي يحاولوا إقناعها بالصالح، ثم تبيّن أن منزل الشقيقة الكبرى كان خاليًا،

وأنه كان ينتوي حبس سميرة هناك، لكنهما نجحتا في الفرار منه عندما دقّ جار شقيقتهم الباب طالبًا مساعدة الأخ في أمر ما..

- معلش سامحيني، بس مهما كان أخوكي مجنون ومش طبيعي بس مش معقول يكون عمل فيها دا كله علشان عايزة تسيب الشغل في البلد وترجع المكتبة..

(علّقتُ على ما قالتهُ ناظرة إلى عينيها مباشرةً).

أبعدَت عينيها بسرعة، ومسحت على الرباط الأسود المربوط حول رسغها هي الأخرى ونظرت إلى الأرض.. مضت فترة صمت، ثم أردفت قائلة:

- يا أبلا زين أنا ماعرفش سميرة عاوزاكي تعرفي إيه بالظبط، بس وربّنا هي عايزة تسيب الشغل في الغيط وترجع لشغلها هنا.. هي مش عايزة تعيش فالبلد.. مش عايزة تعيش مع حامد.. حامد مجنون رسمي، وبعدين دي مش أول مرَّة، ماهو كسرلي إيدي ورجلي قبل كدا..

- أنا فاهمة.. بس عمومًا، اللي بيحصل دا جريمة، واختك دي ضحية، إنتي عايزاها تموت؟ عايزة تموتي إنتي كمان؟ لازم يكون في حد يرجّع المجنون دا عند حدُّه.

- ماتِشغليش بالك، كفاية وقفتك معانا، هو احنا عندنا بيحصل كدا عادي، هو راجل البيت دلوقت من بعد أبويا ما سابنا، ماحدش يقدر يقوله بتعمل إيه.. النهار بس يطلع ونروح لـ ابونا يارب بس ما يعملش زي حامد ويكمل علينا احنا الاتنين.

- يكمّل عليكو؟!

- آه، ماهو يمكن يصدق اللي بيقولو حامد..

* * *

فهمتُ بعد ذلك أنها تعمل هي الأخرى في جمع المحاصيل في "الغيط" وأحيانًا في بيع الحليب والجبنة، وأنّ حامد يستولي على كلّ ما تجنيانه الفتاتان فهو عاطل مصاب بهوس الذكورة القاتل أسكَرَتْه فكرة السيطرة، يُفضّل الدُّخَان على أمّه..

تركتها وذهبت لتبديل ملابسي، كانت الساعة قد اقتربت من الثالثة صباحًا، دخَلْت إلى غرفتي، أفكر فيما يحدث، وأمسح على الرباط الأسود، كيف يُمكن لشخص ما أن يفقد حياته وهو لا يزال على قيد الحياة، أن يُسيّرهُ شخص آخر ويمتلك أمره حتى إذا ما قرر التفكير قليلًا فلن يكون من مشاهدته يموت مانع!

* * * *

obeikan.com

(١٠)

في الصباح رحلت الفتاتان، وانقضت بعد ذلك فترة طويلة، عدتُ خلالها لعاداتي الحسنة والسيئة معًا، باختصار عدتُ كما كنت..

الانعزال صديق الأرواح الخفيفة، الانزعاج الشديد من الشمس نهارًا، ومن الضوء الفضوليّ المفرط في تسلّطه ليلًا، أحيانًا ألعب الشطرنج بمفردي، وأتخيل خصمي في الجانب الآخر، أهزمه أحيانًا وأحيانًا أخرى يهزمني، ويظلّ الثأر بيننا مستمرًا. لا مواعيد ثابتة عندي للنوم ولا للاستيقاظ، فيما عدا بعض الأيام التي كان ضميري يؤنبني فيها للالتزام بمواعيد العمل ويتوافق مع رجل الضمير القويّ أنّ سببًا ما يدعوني للاستيقاظ مبكّرًا دون رغبة في النحت أو القدرة على التسكّع في شوارع وسط المدينة التي تُشعرني أنّ الكون ما زال قادرًا على الحياة، كنتُ حينئذ أذهب إلى العمل في الوقت المحدّد لأقضي وقتًا بين الأجهزة الصمَّاء والزملاء مفرطي الماديَّة عديمي الخيال، وقتًا هو من أشدّ الأوقات مللًا وقتلًا لكلّ نوع من أنواع الخيال المبدع..

وحينما تُطلقُ ساعات العمل سراحي، أخرج أحيانًا لاختبار المساء خارج المنزل وحدي، أو لمقابلة بعض الرفاق، وفي الغالب أيضًا تكون وجهتي الأقرب إلى النفس هي وسط البلد.. دائمًا كنتُ أتخيّل أنه لو كان في وسع الجدران الصامدة لبنايات وسط المدينة أن تكتب، لاعتزل الكتابة كثير

من الروائيين والكُتاب.. ما زالت أمّي ترفض العودة إلى مصر، وما زال أبي معها ولا يرى بأسًا في إصرارها على عدم العودة..

من المفترض أننا نقيم معًا أنا وسامي أخي الوحيد، الذي يسافر كثيرًا نظرًا لظروف عمله. ولحُسن الحظّ أنه يُسافر، هذا أفضل من أن تجمعنا مساحة واحدة ثمّ تصبح الحياة بيننا فيها مستحيلة، فسامي لم ترُقْ له عاداتي التي يصفها دائمًا بالفوضوية والمجنونة، وأنا لا أستطيع التعايش مع عاداته النظامية الثقيلة.. اضطُرِرنا منذ قرابة العام لتركِ شقَّة وسط المدينة والإقامة في شقَّة الوالدين في إحدى المدن الجديدة على أطراف القاهرة نظرًا لأنها أقرب إلى مكان عملي وعمله، شقَّة واسعة إلى حدّ ما، من غرفتين، صالة واسعة، أثاثها حديث، لكنه تقريبًا لم يُستعمل، فيما عدا قطع الأثاث الموجودة في غرفتي. تقع الشقة في الطابق الثالث في بناية من أربعة طوابق. المفترض أن جميع شقق البناية مبيعة بالكامل إلا أنها جميعًا خالية، هناك من اشترى شقة لأحد أبنائه ولم يتزوّجْ الابن بعد، وهناك من اشترى شقة بغرض الاستثمار لا أكثر، المهم أنني أنا الساكن الوحيد. البناية تقع في شارع طويل، تمتدّ البنايات على جانب واحد، أما الجانب الآخر فهو صحراء ممتدة، من المُقرّر أن يتمّ بناء مركز تجاري عليها، غير أن المشروع لم يُفلح حتى الآن في رفع ذرَّة رمل واحدة من ذلك الكيان الأصفر الممتدّ..

أسكنُ وحدي مع صاحبي، لا أدري تمامًا إن كنتُ أُحبّ الناس، أم أُفضّل الابتعاد عنهم، أعتقد أنه من أصعب الأمور أن يعرف المرء ما يريد. ربما أشعر أن العيبَ عندي أنا، أشعر أنني غير صالحة للبشر، على الرغم من أنني أنجح عادة في التعرّف بهم، لكنني لا أُجيد الكلام، كنتُ أبكي في

طفولتي عندما كان الصّغار يضحكون منّي حين أتلعثم أو أخطئ في ترتيب الكلام، لذلك كنت أنسحب بعيدًا، أتحدّث مع المخلوقات الأخرى، أشعر أنها تفهمني ولا تضحك منّي. كنتُ أرسم كثيرًا إلى أن انتقلت من مدرسة لأخرى، فالتفتَ معلّم التربية الفنية لما أرسم، تعلثمت ولم أستطع إكمال الجملة حين سألني "مين اللي علّمك الرسم؟"، لكنّه هدّأ من روعي واهتمّ بي اهتمامًا خاصًا، كان يُحدّثني عن أساليب التصوير وعن تفاصيل كثيرة كانت أكبر من قدرتي على الاستيعاب في تلك السنّ، لكنني كنت أبذل كلّ جهد لديّ حتى أُطبّق ما يقول، أصبح الرسم مهربًا لي بعيدًا عن فشلي في الاندماج مع الناس، تعلّمتُ أنّ الفشل أحيانًا ما يكون علامة فارقة، لافتة على رأس الطريق، تنحرف الطريق بعدها صوب رحلة أجمل.

لم يكُن لي نصيب من التفضيل لدى أمّي أو أبي، أخي سامي الذي يكبرني بثلاثة أعوام، كان قد حصل على كلّ ما يُمكنُ أن يُفرزه قلبا أمي وأبي من حبّ وتفضيل وخوف وأحلام. تعوّدتُ على أن أتخذَ موقع المُراقب من بعيد، هذا هو موقعي بالنسبة إلى أفراد أسرتي جميعًا وربما من العالم بالكامل. غرفتي هي الغرفة الأخيرة في رواق البيت الذي كبرت فيه، ومقعدي على طاولة الطعام هو المقعد التالي لمقعد أخي الذي يُجاور أبي من ناحية اليمين ويُقابل أمّي مباشرة. دائمًا ما كانت تقتصر نصائح أبي لي على أن أرى مدى كمال أخي ونجاحه وأن أُحاول أن أقلّده وأتبع خطواته، كانت الصدمة الكُبرى لهم حين اخترتُ الالتحاق بكلّية الفنون، لماذا لا ألتحق بكلّية الهندسة مثل أخي، لماذا لا أرتّب غرفتي وأشيائي مثلما يفعل سامي، لماذا لا أصبح نسخة مؤنّثة منه..

أذكر أنّ أبي ظلّ يُحدّثني بصيغة المذكّر فترة طويلة، ربّما استمرّ في مناداتي بـ"يا ولد" حتى بلغت الخامسة عشرة من عمري، وحتى الاسم الذي اختاراه لي كان اسمًا لا يشبه الأسماء التي يتمّ اختيارها للفتيات، وبالرغم من ذلك كانا يرفضان أن ألعب مع الأولاد في مثل سنّي من الأقارب والجيران في طفولتي، كانت التحذيرات والتهديدات تنهال على رأسي حينما يُخبرهما سامي أنني لعبتُ أو تمشّيت مع أحد الأولاد، لذلك كنتُ أذهب لألعب وحدي، كنتُ أهوى اللعبَ في الحديقة المحيطة بالمنزل، وكانت الفتيات تلعبنَ في منازلهن، فإما أن ألعب مع الأولاد أو ألعب بمفردي، كنتُ أقصد الشجرة الكبيرة الوحيدة خلف المنزل، وأسمّيها أمّ الشجر، تعوّدت أن ألعب وحدي وأجلس وحدي وأتكلّم مع نفسي، في حين كانت أحبّ الأوقات لقلبي حين تمشِّط أمّي شعري، أو حين تأخذني لشراء الملابس، لكنّ هذه الأوقات انتهت عندما وصلت لسنّ الثانية عشرة، فكانت تتركني أقوم بكلّ ما كانت تساعدني على القيام به بمفردي.

كان أبي وأمي قد سافرا إلى إحدى دول الخليج واصطحبانا معهما عندما كنت في السادسة من عمري، مكثنا هناك إلى أن أنهيت مرحلة الثانوية العامة، وعُدتُ بعد ذلك لمشاركة أخي سامي في المعيشة في شقَّة في وسط البلد، والذي كان قد أجَّرها للمعيشة فيها وحده بعد أن بدأ مرحلة الدراسة الجامعيَّة. التحقتُ بكلّية الفنون، رغبتي التي عارضاها بكلّ قوَّة ثمّ تقبّلاها بمنتهى السهولة عندما أقنعهما سامي بأن يتركاني أفعل ما أريد، وكانت تلك هي المرَّة الأولى التي يقف سامي إلى جواري فيها. ظلّت تمرّ السنوات وأمي وأبي لا يعودان، يُرسلان إلينا تذاكر السفر حتى نذهب

لقضاء عطلة الصيف معهما، وكنا نذهب أنا وسامي كلّ عام، لكننا توقّفنا عن هذه العادة عندما حصل كلّ واحد منَّا على وظيفة. أُحبّهم جميعًا وأشتاق إليهم، وأعرف أنهم يُحبونني، لكنّ الحبّ ليس أن تعرف أنّ الآخر يُحبّك، الحبّ أن تشعر وترى وتلمس حبّه لك.

ربّما أكون قد كوّنتُ شخصيَّة انعزاليَّة منطوية، وربما كان حظّي أنني لا أُفلح كثيرًا في تكوين الصداقات، صديقة واحدة أو صديق واحد يكفي، عندما يستحقّ أن أشاركه ذلك الجزء الخاصّ من قلبي، فأنا عندما أُحبّ لا أستطيع أن أرى، وقعتُ في الحبّ مرارًا، لكنّها مرَّة واحدة التي انكسرتُ من بعدها وقرّرت أن الوحدة هي الشكل الأنسب لحياتي، هو قلب واحد وحيد الذي أملكه، ولم يعُد في وسعي تحمّل أن يجرحه أحد من جديد.

* * *

انقطعَت أخبار سميرة ورحمة لفترة، لكنّهما كانتا تمرَّان ببالي كثيرًا، رباط من الخيط الأسود، فتاتان بائستان على الرصيف ذات مساء شتويّ، آثار الضرب المبرح، الأخ المجنون

ورائحة الدُّخَان..

حتى تلقّيت اتصالًا من رحمة في صباح يومٍ ما، كانت تشكرني على استضافتي ومساعدتي لسميرة، عرفت منها أنّ سميرة تزوّجت، وما زالت تقيم في القرية وتعمل معها في "الغيط"، وأنّ الأمور أصبحت أهدأ منذ زواجها..

أصبحَت اتصالات رحمة وسميرة تتبادل وتتوالى من وقت لآخر، ولكنني كنت أنسى أن أسألهنّ عن قصَّة الرباط الأسود بالتفصيل، ذلك الرباط

الذي أصبحْتُ لا أخلعه عن رسغي، وقد أصبحَ يُهيّأُ لي أحيانًا أنّ رائحة دخان تمسكُ به، أو لعلّها كانت تنبعث منه!

أحيانًا ما نفعل أشياء لا تفسير لها، ربما تُناقض قناعاتنا، تلك القناعات التي هي في ذاتها تقبل التغيّر والتحوّل، كتقبّلي لفكرة ربط الرباط الأسود حول رسغي دون أن أفهم ما هي قصته أولًا..

كثيرٌ من الأشياء تكمنُ قيمته في الغموض وليس إلّا..

* * *

قرأتُ ذات يومٍ لمُفكّر ما، يقول إنّك "إن ذهبت إلى الأنثى لا تنسَ أن تصطحب معك السوط (الكرباج)"!! هل المرأة هي الحامل الوحيد لجينات العبوديَّة؟ وفي حين أنّ الذكر هو الذي يطمح في الغالب للانطلاق والحرّيَّةِ إلى أبعد الحدود، تظلّ الأنثى هي العائق الذي يفرض عليه فكرة الاستقرار؟

يُساورني بعض الشّكّ في تلك النظرية، فلو لا تطلّعات أمّنا حوَّاء وشغف روحها للاكتشاف والحرّيةِ لما كانت البشريَّة أصلًا، حوَّاء أوّل الإناث كانت هي صاحبة أوّل اكتشاف وأول مغامرة في تاريخ الإنسانية، ولم يكُن أبونا آدم إلا شريكًا لها بعد أن كان عثرة في طريق إنجازِها الكبير..

هل استعذبَت سميرة التعذيب والإهانة في حين أنها كان يُمكن أن تفِرَّ بحياتها وتصنع لها مصيرًا أفضل إن هي أرادت ذلك؟ وافقَتْ على البقاء في "الغيط" والزواج من شخص لا أعتقد أنه يختلف كثيرًا عن حامد، فقط من أجل "خلّي الدنيا تمشي"، النصيحة التي كانت تقدّمها لها السيّدات الحكيمات في محيطها من الأقارب والجيران؟ سميرة هي

النسخة الريفيَّة البسيطة للأنثى المغلوبة على أمرها في الغالب العام، هذا إذا نظرنا بعين الرضا والموافقة لما قاله المُفكّر صاحب المقولة التي ذكرتها سالفًا، لكننا إن وجدنا في دواخلنا ما يدفعنا لأنْ نتسرّب بهدوء إلى حكاية سميرة ورحمة، ربما نتمكّن من العثور على تفاسير أخرى..

* * * *

obeikan.com

(١١)

القدر هو تلك اليدُ الخفيَّة التي تسحبكَ من ياقتكَ بخفَّة شديدة وتُبقيكَ في المسار المُخطّط له مُسبقًا، تعتقد أحيانًا أنك ترسمُ بيدكَ الطريق وتسير عليها، لكنّها لحظات خاطفة.. تضيء فجأة، وتنطفئ في لمح البصر، هي تلك اللحظات التي تكتشف فيها أنك لن تسير إلا على طريق صُنعت لك ولا مفرّ من البقاء عليها أبدًا..

* * *

مرّ على استضافتي لسميرة ورحمة بعد حادثة اعتداء حامد على سميرة وكل ما تبع ذلك من أحداث، قرابة الشهر، تخلّلته بعض الاتصالات من سميرة، إضافةً إلى زيارة واحدة من رحمة..

كان يومًا ربيعيًا، ما يعني أنني كنتُ أعاني حساسية الربيع، لم أذهب للعمل، استيقظت وبالكاد يمكنني أن أُفتّح جفنيّ، يؤلم عينيّ ضوء ما رغم أنّ الستائر فوق شرفة غرفتي مسدلة تمامًا..

لا أستطيع إدراك الأشياء ولا الزمن حين أستيقظ حتى أشعل سيجارة وأغمض عينيّ فترة أخرى.. تبدأ بعد ذلك الأمور في الانجلاء رويدًا رويدًا.. الدُّخَان يزيد الحساسية سوءًا، لكن ماذا نفعل في عاداتنا السيئة؟

أحيانًا تعجبُنا عاداتنا السيئة، كأنّها ثقوب في جدار الزمن الكئيب، نخرج من خلالها بعض الوقت هربًا من الموت عجزًا، أو مللًا!

كان "صاحب" مُمدّدًا جواري، يرفعُ حاجبيه ويرمقني بنظرةٍ بطرف عينه من آنٍ لآخر، حتى قام منتصبًا وبدأ في تحريك أذنيه يلتفتُ نحو باب الغرفة، فعرفتُ أنّ هناك من أتى لزيارتي وأوشك على طرق الباب.. حاولتُ القيام من الفِراش، حتى تمكّنت من فتح عينيّ وضبط دورتي الدمويَّة غير المتّزنة.. ثمّ طُرِق الباب وبدأ "صاحب" في الدوران حول نفسه..

- رايحة افتح الباب خلاص.. اهدى بقى..

(حدّثت صاحب ومسحت رأسه فسار خلفي متابعًا قدميّ، حتى فتحت الباب).

- أهلًا أهلًا.. ازيّك يا رحمة.. تعالي ادخلي..

كانت باسمةً، تشبهُ الحقلَ الممتلئ أملًا ورغبة في الحياة، تعقدُ شعرها فوق رأسها وتربط رأسها بقطعةٍ من قماش أخضر.. دخلَت إلى البيت حاملةً حملًا لا يبدو أنه خفيف، أدخلَتهُ إلى المطبخ ووضعَتهُ على الطاولة المربّعة تحتَ النافذة..

- إيه يا رحمة جايبة إيه بس.. أنا قايلالك مابشربش لبن ولا باكل جبنة..

- لا مش لبن.. دي حاجة بسيطة، حاجة كدا على قدّنا من الأرض.. من سميرة.

- أخبارها إيه سميرة، اقعدي طيب.. وانتي كمان أخبارك إيه؟

جلسَت في مقابلتي، حكَت لي عن كثير مما يجري في قريتها.. أن السيّدات لا يكفُفْنَ عن الحمل والولادة بحيث إن الناس أصبحوا يهشّون الأطفال من حولهم كقطعان الغنم حين يمشون في الطريق.. أسهبَت في وصف "فرح نجيَّة" بنت "خالة راضية" والذي كان "حاجة تفرح"، وأنّ شقيقة نجيَّة الكبرى أرسلت عشرة خرفان وعجلًا وعشرين بطة وثلاثين ديكًا وعددًا ضخمًا من كيلوجرامات الخُضَر والفاكهة والأرز والبقول كهديَّة زواج لأختها.. "أصل سعيدة أخت نجيَّة ربنا فتح عليها أوي واتجوزت راجل طيّب، لا ليه في الشرب ولا النجاسة هو الحشيش وخلاص على كدا، غفير عند راجل مهم.. ربنا يبارك لها". علّقَتْ رحمة.. واحتفظتُ أنا بتعجّبي لنفسي!

- وانتي بقى هتتجوزي ويبعتوا وراكي عشر جِمال وخمسين حصان امتى؟

(سألتها ضاحكة).

- وأنا مين بقى اللي هيبعت ورايا يا أبلا زين.. ربنا يهديك يا حامد.

- هو أخباره إيه معاكو.. اتحسّن شوية؟

- زي ما هو.. كلّ ما حد يزعّله، حتى لو برَّة البيت، ييجي يدوّر الضرب فيَّا ماهو ماعدش غيري يا أبلا.. أنا اتعوّدت بقى خلاص.

- ولسَّة بياخد فلوسك طبعًا؟

صمتَت وتنهّدت، ثمّ تجاوزت سؤالي واستبدلَتهُ بأن سألَتني عما إن كنتُ على ما يُرام بعدَ أن لاحظَتْ عينيّ الملتهبتين، أخبرتها أنها حساسية الربيع وأنها ستزول سريعًا.. ثمّ سألتُها:

- صحيح، أنا كلّ مرَّة أنسى أسألك، هو إيه حكاية الرباط دا اللي إنتي وسميرة رابطينه على إيديكو وسميرة جابتلي زيه؟ دا خيط دا والاّ إيه؟

- دا رباط كدا بتعمله مراة خالي، هي ست مبروكة، دعوتها مستجابة.. لما بيطرح القطن، ساعات بيبقى في المحصول بعض قطناية سودا، بنلمّها وبنودّيها لمراة خالي، بتقرا عليهم وبتغزلهم على إيدها وتعملهم زي الرباط دا كدا.. اتعوّدنا نربطه على إيدينا، بيجيب خير كتير وبيمنع الحاجات اللي بالك فيها..

- آه.. تمام.. بيجيب الخير..

(علّقتُ محاولة ألا أبدي عدم تصديقي لعقيدتها الوراثية).

- بسّ إنتي أما تبقى خايفة والّا زعلانة ملّسِي عليه، وادعي، هتلاقي ربنا يفرجها عليكي علطول..

ابتسمتُ لها موافقة وقد بدى عليّ الانبهار بهذه القدرة السحرية للرباط القطنيّ الأسود.. ظلّت بعض الوقت وكان "صاحب" بين الحين والحين يقترب منها ويلعق الرباط الأسود حول يدها، ثمّ يذهب للتكوم جوار الباب..

تكرّرت زيارات رحمة، حتى انقطعَت مدَّة ثلاثة أشهر عن المجيء دون سبب، ثمّ طرقَت بابي ذات يوم بعد الغروب، كنتُ قدَرًا موجودة في البيت..

...

فتحتُ بابي..

دخلَت رحمة ودخلَتْ معها مأساة جديدة لا شفقة فيها ولا رحمة..

* * * *

(١٢)

أحيانًا أتساءل، لو كانَ في وسعكَ أن تستأصلَ من قلبِكَ الجزء المسؤول عن الشفقة، ماذا سيحدث؟

هناكَ تضارب بين مشاعر الرضا السلبي، ومشاعر الشفقة.. فعادةً عندما تنظر من شباك السيارة وتصادفكَ حادثة ما على جانب الطريق، لا يُمكنك إلا أن تنظر إلى الحادثة، أحيانًا من باب الفضول، ولكن في الغالب من باب الرضا السلبي، ذلك الإحساس الذي يعني أنه ما دام الحادث قد وقعَ لشخصٍ غيري فأنا بخير على أيّ حال.. في حين أنّك إن كنت أنت المُصاب في الحادث فلن تتمنى أن يسير جوارك الناس محملقين إليك ضاربين كفًا بكف..

شعورٌ يُشبه ما يشعر به الناس حين يذهبون حاملين التعازي لأهل شخص مات حديثًا، كأنهم يقولون في أنفسهم "لا داعي للإفراط في الحزن والبكاء ما دُمنا نحن لا نزال على قيد الحياة".

لكنك إن مررتَ ذات يومٍ في الطريقِ بجُثَّة مسكينٍ ما، ملقاة على جانب الطريق، تُغطّي نصفها أوراق الجرائد، وتبدو على ملامحه المأساة التي تُلخّص حياته وتبعث في نفسك الأسئلة وخليط المشاعر المضطربة من غضب وحزن وشفقة.. فتظلّ واقفًا تتلفّت حولك لا تدري ماذا يجب عليك أن تفعل.. هل تحمله وتسير طارقًا الشوارع سائلًا عن قريب أو

بعيد يعرف المسكين؟ أم ستتصل بالأجهزة المعنيَّة لتُبلِغ عن الجثمان المُلقى على الطريق؟

كلّ هذه أفكار ستمرّ وراء بعضها على روحِكَ الذي أثبتَ أنه ما زالت تعملُ به الوظائف الإنسانيَّة الحيويَّة بكامل كفاءتِها..

في حين أنّك إن ظلَلْتَ تتذكر ذلك المشهد بتفاصيلهِ ثمّ تغمض عينيك بقوَّة، وتضطّربُ أعصاب جسمِكَ حين تراه أمام عينيك في كلّ مكان تنظر إليه.. على سريرك، في رواق منزلك، جوار كلّ رصيف تسير قُربه، جوار سيارتك، تحت مكتبك، في مدخل عملك.. إلخ، فإنك بكلّ تأكيد ستكون قد أوشكتَ على الوصول إلى ما وصلتُ أنا إليه!

* * * *

(١٣)

وجهٌ شاحبٌ أشبهُ بميّتٍ مضى عليه ثلاثة أيّامٍ ولم يُدفن بعد، نصف الوجه متورّم وبه عدَّة جروح، العينُ اليُسرى مغلقة تمامًا من أثر الورم،ذراعان خائرتان، كدمةٌ كبيرة في الكتف، ونزفٌ يسيل ويبدو أنّ مصدره أعلى الفخذين..

تلك كانت رحمة، وجدتُها راكعة على ركبتيها حين فتحت الباب. تنظرُ إليّ بالعين الواحدة المفتوحة، لا بُكاء، لا فزع، لا قلق، وجهٌ فارغٌ من كلّ شيء..

ورائحة حريق..

أدخلتُها إلى البيت، بعد أن شهَقْتُ حينَ رأيتها وتعرّفتُ إليها بالكاد، ارتعد جسمي كاملًا.. "يا نهار اسود، رحمة!" لم أنطِقْ بكلمةٍ واحدة بعد ذلك حتى مدّدتُها على سريري، وهرعتُ إلى المطبخ الذي لم أدخلْهُ منذ أيام، وربما أسابيع، كدتُ أنسى أين كنتُ أحتفظ بالصحون البلاستيكية العميقة، تعثّرتُ بين الدواليب، حتى عثرت على إناء خزفيّ يصلح لما أريد، ملأت ثلاثة أرباعه ماءً دافئًا، وأحضرت من الحمام منشفتين صغيرتين، وذهبتُ إليها، بدأت في تنظيف جسدِها..

في مثل هذا الوقت، لن تستطيع التفكير في نفسِك، لن تمتلك رفاهية التركيز.. لماذا تهتزّ أطرافي كلّها؟ لماذا ترتعش مقلة عيني بين الحين والآخر

وأحيانًا تُظلمُ عيناي فجأة ثمّ تعودان فجأة للعمل؟ أقصى ما ستتمكن من فعله هو أن تضطرب خطواتك وأنت تمشي في المكان ذهابًا وإيابًا وتمرّر أناملك بين شَعركَ ترتّبه ثم تبعثره دون وعي، تمسك وجهك بكفّيكَ، تفتح عينيك بقوة شديدة كأنّك تحاول بذلك تجميع أفكارك، ثمّ تمسك بأول فكرة تبرق في ذهنك صائبة كانت أو خاطئة، المُهِمّ أنك حصلتَ أخيرًا على مخرج يمكنك اللجوء إليه..

بدَأَتْ رحمة في تلك اللحظة في الأنين، تبِعَه نحيبٌ مكتوم، ثمّ فقدَت الوعي..

(.....).

- آلو، رانيا، إزّيك عاملة إيه، إنتي في العيادة؟

- إزّيك إنتي يا زين، فينك يا بنتي؟

- تمام.. تمام، إنتي في العيادة؟

- رايحة في الطريق، في إيه؟

- مفيش، الغي كل مواعيدك لو سمحتي أنا جايالك في الطريق..

- طيّب، طيّب.. في إيه بس؟

- الغي مواعيدك يا رانيا، نص ساعة وأكون عندك.. آه ومشّي البنت الي عندك كمان، لما آجي هتفهمي..

* * * *

(١٤)

الحالة دي لازم تدخل مستشفى

(قالت رانيا وهي تُكمل فحص رحمة).

قولي لي بس فيها إيه طيب وربك كريم

- بصي، واضح إن دي مش حادثة، دا ضرب جامد جدًّا، في كدمات كبيرة في الضهر والبطن، وفي نزيف تقريبًا في الرحم، هي متجوزة؟

- لا، مش متجوزة، ولا مخطوبة حتى؟

- إزّاي مش متجوزة؟.. لا يا بنتي متجوزة، إنتي تعرفيها؟

- آه، عارفاها كويس، مش متجوزة أنا متأكدة.

- بس..

- لأ، مش ممكن..

- آه والله، طيب.. إنتي تعرفيها منين، ما يمكن تكون..

قاطعتُها:

- لأ، بقولك لأ، لا يُمكن، أنا عارفاها كويس جدًّا، رحمة مش كدا..

- يا ستي مش ضروري تكون زي ما إنتي متخيلة، ممكن تكون كانت مخطوبة وحصل حاجة غصب عنها مثلًا..

- ماتخطبتش يا رانيا..

- طيب، عامة مش دا المهم، المهم إن الجروح دي أنا هخيّطها مفيش مشكلة، بس مش هتبقى خياطة تجميل، كويّس إن الجروح اللي في وشّها بسيطة، غير كدا لازم أشعة ممكن يكون في إصابات داخلية.. أنا هدّيها حاجة لوقف النزيف، بسّ لازم تروح مستشفى..

- تعرفي حد في أي مستشفى يساعدني في إن الموضوع مايبقاش فيه محضر ولا قسم ولا الهَري دا؟

وجّهَتْ لي نظرةً تنفجر ريبة، ثمّ بدأت في تحضير حقنة، وبعض الأدوات.. ثم سألَت كأنها لم تستطع منع نفسها:

- هو فيه إيه يا زين؟ أنا مش مرتاحة.. إنتي علاقتك إيه بالظبط بالموضوع دا؟

- ولا حاجة يا رانيا، كل الحكاية إني مش عايزة أدخّلها في أي إجراء دلوقت، لما تفوق على الأقل تبقى تقرّر هي عايزة تعمل إيه..

- ماشي.. أنا مصدّقاكي، بس إنتي مالِك بالمصيبة دي؟.. إنتي عارفة إنك ممكن تدخّلي نفسك في مشاكل وحكايات.. يبقى ليه بقى.. يا تمشي رسمي يا تطلّعي نفسك برَّة الموضوع خالص.

بدأَت تنفد قدرتي على متابعة لهجتها الجافة التي لم تكُن لديّ القدرة على تحمّلها أكثر من ذلك.. نفخْتُ غيظي، وتوجهتُ للنافذة أشعلتُ

سيجارة لا طعمَ لها ولا معنى، غير أنها تحملُ الحِمل عن صدري وتقذف به خارجه، مرّت لحظات ثمّ توجّهتُ إليها بالحديث وأنا أنظر خارج النافذة لا أرى إلا دوائر الأضواء المتطايرة حول كشافات السيارات ومصابيح الإنارة:

- عندك حد يمشّيلي الحكاية دي في أي مستشفى والاَّ أدوّر أنا بنفسي؟ ساعديني في الموضوع دا ومالكيش دعوة بأي حاجة تانية.. إنتي برَّة الموضوع صدقيني..

كانت قد أنهَت ما كانت تقوم به، رمقتني باستنكار، ثمّ ذهبت لحوض اليدين وبدأت في غسل يديها، كان يبدو عليها التفكير قبل أن تجيبني:

- في دكتور صَدِيق، في مستشفى الجامعة هنا قريب.. هكلّمه.. وماعتقدش هيمانع.. بس لازم تخترعيلُه حكاية تقوليها، مش هينفع تكلميه زيّ ما بتكلميني كدا ومش راضية تفهميني في إيه..

هززتُ رأسي وسرحتُ ثانية بنظري خارج النافذة، خارج العيادة الباردة..

رانيا زميلتي منذ أيام الدراسة، شخصيّتها تبدو في كلامها، ماديَّة، باردة، من نوعية "البنات الدخَّاحة"، كانت تهزأ منَ الشعر والرسم والموسيقى.. حتى الأفلام السخيفة التجارية لم تكن تشاهدها كما كان يفعل كثيرون، تزوّجت طبيبًا يكبرها بخمس عشرة سنة، ثمّ طُلّقت بعد سبع سنوات من الزواج الذي لم يُسفر عن أطفال، كانت علاقتنا جيّدة أيام الدراسة، ثمّ اقتصرت مقابلاتنا على حفلات زفاف بعض الزملاء..

ساعدَتني في حَمل رحمة إلى السيارة، ثمّ ألقت عليّ بعض النصائح، وودّعتني:

- أنا ماليش دعوة يا زين الله يخليكي..

- متقلقيش..

أشرتُ إليها وانطلقتُ إلى المستشفى..

* * *

بعد الفحص، أخبرني "عارف" صديق رانيا، أنّه لم تحدُثْ إصابات داخلية فيما عدا نزيف قادم من الرحم، ربما هو ناتج عن التهاب في بطانة الرحم أو هو النزف العادي، لكنه شديد إلى حد ما، وأشار إلى أنه لا يعتقد أنّ الإصابات خطيرة، ولكن لا مانع من أن تُعرض على طبيب أمراض نساء حتّى يتأكّد من سلامة الرحم..

ظللتُ أهربُ من أسئلته، ونظراته التي تكشفُ عن أنه لا يُصدّق كثيرًا مما حكَيتُه عن رحمة وما تعرّضَت له، حتّى أتمّ فحصهُ وكتب وصفة العلاجات المُقرّرة، مضادات حيوية، مسكنات للآلام، حقنة وقف نزيف إن استدعى الأمر، بالإضافة إلى ورقةٍ جانبية كتبَ عليها اسم طبيب أمراض نساء وعنوانه..

شكرتُهُ بشدَّة وحييتهُ بعدَ أن حملنا الفتاة إلى السيارة.. وذهبت..

* * * *

(١٥)

مضَتْ ليلتان على ما حدث..

لم تكُن مشاعري تجاه رحمة سوى مشاعر شفقة ورغبة في المساعدة، لذلك فقد حاولتُ أن أحملَ بعضَ العذاب عنها، فأن تحملَ جزءًا من الثِقَل عن شخصٍ معذّب لهو أفضل آلاف المرَّات من أن تدلّه على مغارة مليئة بالكنوز..

حضّرتُ فنجان قهوة.. حمَلتُهُ وألقيتُ نظرةً على رحمة التي كانت مُمَددةً على سرير شقيقي تسبح في نومٍ عميق على أثر العلاجات القويَّة والمسكّنات، كانت أنفاسها تتسارع، تتحرّك مقلتا عينيها بسرعة تحت جفنيها المُغمضين، ترتعد قدماها لحظة وتعودان للاستقرار، وقبضتا يديها تتشنجَّان فوق صدرها، لا بدّ من أنها كانت تتراءى لها أسوأ أشكال الكوابيس وأقبحها. أوصدتُ البابَ بهدوء، وذهبتُ إلى النافذة..

كان سامي قد هاتفَني بعد الظهر ليُخبرني بأنّهُ ستمتدّ فترة سفره إلى أجل غير مسمّى.. كانت الخيالات والصّورُ تتكاثف وتتطايرُ متتاليةً أمام عينيّ عمَّا يُمكنُ أن يكونَ قد حدثَ لرحمة..

صورة تركضُ فيها رحمةَ لتختبئَ خلفَ جدارٍ من الطوب الأحمرِ، في حين يرتفعُ صوتُ حامد بالسباب والتهديد، يتبعُها، يجرّها من شعرِها، يرفع كرسيًا خشبيًا يضرب به الحائط حتى ينتزعَ رِجل الكرسيّ، ينهالُ على الفتاةِ بالضرب وبالرّكلات المتتابعة في الظهر والبطن، يصفع رأسها بالأرض عدَّة مرَّات صارخًا بكلّ اللعنات وصيحات الغضب، ثمّ يتركها جثةً هامدة ويخرجُ وهو ينفثُ الدُّخَان من أنفه وأذنيه كالثور المجنون..

تتطايرُ سريعًا تلك الصورة لتحلّ محلّها صورة افتراضية أخرى.. يُمسكُ فيها حامد بذراع رحمةَ جاذبًا إيَّاها، لكنّها تُفلتُ منهُ فتتلقَّاها سميرة التي تقفُ أمامَه كحائط سدٍّ خائر، تحاول منع شقيقِها من الوصول إلى رحمة، قبل أن يصفع هو سميرة بكلّ ضراوةٍ صفعة تُلقي بها أرضًا، يلتقط رحمة من صدر ثوبها، ثمّ يجرّها إلى غرفةٍ ما، يوصدُ الباب، يطرحها أرضًا، يخلع حزامهُ، ينهال عليها بالجلدات، يُسدّدُ إلى بطنها وظهرها الركلات، يرفعُ إناءً معدنيًا صدِئًا يصفعِ وجهها به، ثمّ يتركُ المكان وهو يُلقي نظرةً على جسد رحمة المتكوّم على الأرض، يختلطُ عويل سميرة بأنين رحمة..

وتختفي الصورة..

تتبعها صورة ثم تختفي، تتبعها صورة ثم تختفي.. هكذا وإلى ما لا نهاية.. لكنني لم أستطِعْ أن أتخيّل من أينَ جاءت رائحة الحريق!

في تلكَ اللحظة تسرّب إلى أذني صوت الأنين.. يبدو أنها بدأت تُفيق..

* * * *

(١٦)

إذا أردتَ أن تتعرّف إلى بلدٍ ما، فلا بدّ أن تفهم كيف يضحكُ الناس فيه وكيف يموتون..

من أينَ يبدأ النزيف؟ منَ الدماغ؟ أم منَ البطن؟ ما الذي يؤلمُ أكثر، العمى أمِ الجوع؟

ستخرجُ امرأةٌ في الوقت الرماديّ ما بين الليل والنهار، جلبابها الأسود المهترئُ عند القدمين يشبهُ حياتها في كثير من الصفات، ثقوب بأحجام مختلفة تنتشر عليه، كأنها نوافذ تُطلُّ منها عفاريت الحظّ البائس..

تجرّ خلفها خمسة صِغار، تطالبهم بالصمت، ثمّ تجد أنه لا داعي له، لن يلتفت أحد على أي حال، الطريق الترابيّ الطويل غير الصالح يكفي لتمزيق الجلد الآدميّ، وربما اللحم أيضًا عن الأقدام العارية الصغيرة والكبيرة على حدّ سواء، لكنه التعوّد..

التعوّد مسكّن ممتاز، خاصَّة عندما لا نملكُ الحقّ في الصراخ..

تسير المرأة وتتبعها قافلتها الصغيرة حتى تخرج إلى شارع كأنّه دولة أخرى نبتت فجأة على حدود مدينة الموتى، تتسلّل كالذي عرف موقع الكنز الكبير، تقتربُ إليه، تبدأ في تحميل الخيرات الكثيرة في كيس مصنوع من قطعة قماش بالية، تُناول الصِغار ما يُسرعون لقضمه والتهامه نهمًا، ثم

تنظرُ نظرةً أخيرةً لتَتأكد من أنه لم يعُد هناك شيء لمن سيقصدُ المغارة السحرية بعدها.. تبدأ في العودة من حيث جاءت ساحبةً وراءها تركِةً مكوّنة من خمسة أفواه مفتوحة على الدوَّام "اللي لقيناه يكفّينا يومين لو ما بعناش الجبنة.. وأدينا نبقى نرجع تاني، الناس هنا زبالتهم فيها أكل أكتر من اللي في السوق..".

ستحكي لي رحمة عن ذلك اليوم قريبًا، وعنِ "الحاج ناجي" الذي كان يجمعُ الفتيات وهي بينهن حين كانت لم تتجاوز التاسعة من عمرها في صندوق "عربيَّة ربع نقل" وينقلهنّ لجمع المحاصيل، "أضحّكِك يا أبلا زين؟ عارفة اليوميَّة كانت كام، اليوميَّة كانت اتنين جنيه..". تقولها وعيناها تسترجعان صورة الطفلة السمراء، الطفلة التي لم تتجاوز التاسعة، تجلس القرفصاء في "الغيط"، وإن سرحت أو ضحكت أو أخطأت، إمَّا ستُصاب بركلةٍ في الظهر تغرز رأسها الصغير في الطين، وإما سينزل عليها غضب السماء وتُحرم من اليوميَّة الكريمة.. تلك الطفلة التي انحنى ظهرها صغيرًا.. انحنى ظهرها وتنكّست جبهتها منذ زمنٍ بعيد..

* * *

ما يؤذيكَ ربما لا يؤذي غيرك، لكنّ أوجاع الروح لا يُمكن ألا يشعر بها الجميع، أولئك الذين لا ينتمونَ إلى الإنسانيَّة هم الذين لا يُمكنهم استيعاب وجع الاحتياج، أولئك الذين لا ينتمون إلى الشعب هم الذين لن يشعروا بالجوعان وهو يحدث نفسه قائلًا: "يا أيّها الرغيف، ماذا سأدفعُ أكثر من جِلدي وشرَفي ثمنًا لك؟!".

انتبهتُ للأنين الذي يُشيرُ إلى أن رحمة بدأت تُفيق، أفقتُ أنا بدوري من رحلة التخيّل عند النافذة، وذهبتُ إليها، طرقتُ الباب طرقتين خفيفتين، ودخلتُ إليها، حاولَت القيام والاعتدال جالسةً، ساعدتُها وجلستُ على طرف السرير.. تحسّن ورم الوجه كثيرًا، واستطاعَتْ حمْلَ نفسِها على ذراعَيها للاعتدال، لم أحسبْ حساب هذه المقابلة، فالأسئلة تخترق دماغي من اليمين إلى اليسار والعكس..

- كلّ دا نوم يا مفترية؟ أخبارك إيه دلوقت؟ حاسة بإيه؟

- أنا كويّسة، كتّر خيرك يا أبلا.. هو احنا امتى؟

- احنا بعد ما خبّطتي عليَّا بيومين..

(أجبتها بابتسامة وأنا أمسح على ساقها، لكنّها سارعت بسحب ساقها من تحت يدي ورفعت ركبتيها أمام صدرِها وطوّقتهما بذراعيها).

- يومين! أنا متّ وصحيت والاّ إيه؟

(سألت وهي تنظرُ في الفراغ ورائي متجاوزةً وجهي).

- إحنا هنهزّر بقى؟ بيتهيألي المفروض تاكلي حاجة.. تاكلي إيه؟

- مش جعانة خالص..

- طيّب..

(لم يعُدْ في وسعي تأجيل السؤال).

- هتقوليلي إيه اللي حصل؟

ظلّت تنظرُ إليّ صامتةً، وهي تحكم تطويق ذراعَيها حول ساقيها، تحتضن نفسها، كأنها تحاول حماية نفسها من التذكّر.. اقتربتُ منها وربّتُ كتِفها، فارتعدت وأبعدت نفسها عن يدي، فابتسمْتُ لها وقرّرت الانسحاب وتركها لنفسها قليلًا..

- خلاص بلاش تحكي دلوقت.. أنا هاقوم أشوف حاجة تاكليها..

تركتُها، وطلبتُ لها وجبة سريعة، وبعض الأطعمة لإعادة الحياة لهذه الصحراء التي لم أنتبه لانتشارها من حولي.. وطلبتُ معطّرًا للجوّ لقتل رائحة الحريق التي لم تعُدْ تفارق المكان..

* * * *

(١٧)

بعد مرور ساعة تقريبًا، عدتُ لتفقّدها، كانت تستلقي على جانبها الأيمن، تضمّ قبضتها اليسرى إلى صدرها، وتمدّ ذراعها اليمنى بعيدًا في الهواء، تحرّك أصابعها وتنظر إليها، طرقتُ الباب طرقة خفيفة، وجلست على طرف السرير، ربتُّ على ساقها مرَّة أخرى وأنا أسألها عن حالة مزاجها الآن، كانت بحال أفضل لم تسحب ساقها هذه المرَّة من تحت يدي، لكنها استغرقت بضع ثوانٍ حتى أفاقت من غيبوبة حلم اليقظة الذي كانت تسبح فيه واعتدلت ناظرةً إليّ.

أمضينا الليلة في الثرثرة عن أمور متفرّقة، لكنني لم أعاود سؤالها عمَّا حدث ثانيةً.. الانتظار ضروريّ رغم صعوبته أحيانًا..

في اليوم التالي، استيقظتُ مبكّرًا، كانت رحمة لا تزال نائمة، ولا تزال التشنجات اللحظيَّة تمرّ بها، إنها الكوابيس، أشباح الذاكرة التي لا يُمكن الفرار منها.. حضّرتُ قهوتي، وأطعمتُ صاحبي، وجلسنا سويًّا ننظرُ لقطعة النحت التي أعمل عليها..

"صاحب" هو أقرب المخلوقات كافَّة لي، صديقي الذهبي، ليس هنالك في الألوان جميعًا ما أكرهه أكثر من اللون الذهبي، لكنني أحبّه الآن فقط من أجل صاحب، صار رفيقي منذ ما يقرب من خمس سنوات، كان عمره آنذاك شهرًا، أو يزيد ببضعة أيام، هو الوحيد الذي يُمكنه أن يُقنعني

بأنّ الأرواح الطيّبة لا تزال موجودة من حولنا، أحزن يحزن، ألعب يلعب، أغضب يلعقُ أذنيّ ويتشمّم وجهي ثمّ يترك لي وقتًا كافيًا حتى أهدأ. وربما يُصيبه الرعب أحيانًا من تقلّبات مزاجي، لكنّه لم يتخلَّ عني يومًا، ولم يرفُضْني يومًا.. "صاحب" يعرف عن الحبّ والصداقة ما لا يعرفه أحد، ولا حتى الشُعراء..

كنتُ أتحدّثُ وأراجع أفكاري معه، وهو ينظرُ إليّ مستفهمًا، ينظر للأرض ويبدأ في لعق كفّيه، فأعرف أنه لا يروقه ما أقول، ينظر لعينيّ مباشرةً ويلهثُ محرّكًا ذيله يمينًا ويسارًا فأعرف أنني أثرتُ إعجابه أخيرًا..

- صباح الخير يا أبلا..

قطعت رحمة حواري أنا وصاحب، بعد أن طرقت باب الغرفة الذي تركتُه نصف مفتوح..

- صباح الفل، إيه دا.. هايل.. إنتي بتتحركي أهو..

- الحمد لله، هو إنتي كنتي بتكلمي حد والاّ أنا بهلوس؟

- مممم.. لأ.. كنت بكلّم الأستاذ دا

- الكلب! طيّب..

(علّقَت وهي تهزّ رأسها تعجبًا).

- عدّيها متبقيش رِخمة.. المجانين كتير يا أستاذة..

(ابتسمْتُ لأشجّعها على الضحك دون خجل).

ضحِكَت وجلسَت على الكرسي وراء المكتب..

- إنتي اللي عاملة التمثال دا يا أبلا؟

- آه، إيه رأيك؟

- لا دا جميل أوي، بس يعني إيه؟

- متشغليش بالك إنتي، أنا أصلًا مش عارفة هخلّيه والاّ هبدّه.. أعمل لك شاي، والاّ تفطري أحسن؟

- لا، كفاية كدا، أنا تقّلت عليكي جامد.. أنا هاقوم أعمل شاي..

لاحظتُ أنها تحسّنت سريعًا، زالت معظم الكدمات إلى حدّ كبير، كانت تتحرّك، ولكن ببطء، أحيانًا كانت تُمسك أسفل بطنها وتضمّ حاجبيها بقوَّة حين تضطر للوقوف أو المشي لمدَّة طويلة، لا بدّ أن الآلام تعود إليها بين الحين والآخر، لا تزال تسبح في أحلام اليقظة بطريقةٍ متكرّرة، تلك الأحلام التي كانت تغطّي وجهها بكفيها حين تبدأ في الاستيقاظ منها، تصابُ بتشنّجات في القدمين أو الذراعين أحيانًا خلال مشاهدتها لتلك الصور التي تراها ضمن أحلام يقظتها، لم تُحدّثني بشأن أي شيء مما تراه، كنتُ أكتفي بمتابعتها، خِفتُ عليها في بداية الأمر، لكنني سرعان ما أدركتُ أنّ تلك الأحلام تتناقص شيئًا فشيئًا مع مرور الوقت، نبّهتها أن عليها الاستمرار في تعاطي العلاجات المُقرّرة، وأنني على استعداد كامل لاصطحابها لعيادة طبيب النساء، كما نصحني الطبيب الذي فحصها، لكنّها أخبرتني أنها لا تريد الذهاب للطبيب وأنها تشعر بالتحسن، كانت تلك فرصة جيّدة حتى أعاود سؤالها عمَّا حدث..

- مفيش.. حامد ربنا ينتقم منه يا رب..

(أجابت ببطء كأنّها تتذكّر).

- حامد تاني.. إيه البني آدم دا؟ وعشان إيه؟ ليه يعمل فيكي كلّ دا؟ مش معقول كنتي عايزة تسيبي الشغل زي سميرة إنتي كمان.. قوليلي يا رحمة، أنا مش هعمل حاجة تضرك، بس أفهم إيه اللي بيحصل..

- ولا حاجة يا أبلا.. هو مفتري، عاوز يجوّزني واحد صايع زيه، صاحبُه وابن عمّ أبويا، اتفق معاه من غير ما يعرَّفني، وامَّا قُلت لأ، حصل اللي حصل..

- بس كدا؟ متأكدة يا رحمة؟

- أيوة وربّنا هو كدا بس.. ما أنا قُلتلِك إنُه مجنون وماحدش يعرف يُقف قصادُه..

بعد فترة صمت قصيرة، رأيتها تمسح على شعرها ثمّ تعودُ لتمسح وجهها بكفَّها، قبل أن تتلعثم قائلة:

- أبلا زين.. هو أنا ينفع أقعد معاكي كام يوم؟

- إيه الهبل دا يا رحمة، طبعًا.. إنتي أصلًا لازم ترتاحي شوية، ماينفعش ترجعي دلوقت.. وبيتهيألي لا زم تفكّري هتعملي إيه مع حامد، أنا ممكن آجي معاكي ونروح نعمل له بلاغ في القسم..

- لأ، بلاغ إيه، دا أخويا برضه يا أبلا، ربنا يهديه.. أنا بس هقعد معاكي كام يوم، وبعدين لمَّا أرجع أبقى أشوف حد يكلّمُه..

بالرغم من أنني تعوّدت العزلة والوحدة إلى الحدّ الذي أصبحت الوحدة صفة لازمة وأساسية في نظامي اليوميّ، إلا أنني شعرتُ سعادة غريبة عندما قررَت رحمة البقاء عندي، لا أدري لماذا، ربما فضولي لمعرفة مزيد

من التفاصيل والإجابات المقنعة لما تفجّره حكايتها من تساؤلات، أو ربما هو شيء آخر، كان يحمله القدر لي..

مضى اليوم كاملًا، ولم أستطِعْ سؤالها عما قالته رانيا، رأيت أن أؤجّل هذا السؤال قليلًا، ربما كانت على علاقة بشخص آخر، وهذا هو السبب الذي جعلها ترفض "العريس" الذي جاء به حامد.. أفكار كثيرة وخيالات متقطّعة تبحث كلها عن تفسير منطقيّ لما يفعله ذلك الشقيق بشقيقتَيه، خطرَ لي في ذلك الوقت تساؤل جديد، لماذا لم تتصل بي سميرة كلّ هذه الفترة؟ لماذا لم تسأل عن رحمة؟ هل من الممكن ألا تكون سميرة قد فكّرت في أن رحمة قد لجأت لي حين هربت بعد ما فعله بها حامد؟

* * * *

(١٨)

بقِيَت رحمة في منزلي قرابة العشرة أيام، تعوّدتُ على وجودها، وتعوّد عليها البيت بكلّ تفاصيله، بعشوائيته وهدوئه ووحدته.. تعوّد عليها صاحب، حتى إنه كان ينبحُ أمام باب الغرفة التي كانت تقيم فيها إذا هي أغلقت الباب قليلًا..

كانت الصباحات تتلوّن بألوان جديدة كل يوم.. حين كانت تطلّ رحمة ببسمتها السماويَّة لتلقي عليّ "صباح الخير يا أبلا زين..."، حاولتُ كثيرًا أن أُقنعَها أن تكفّ عن مناداتي بـ"أبلا"، وأن تكتفي بمناداتي باسمي مباشرة، لكنها كانت تضحك فتتقافز العصافير على صوتها وتقول: "معلش، استحمليني، لساني مش مطاوعني، مش عارفة أقولها..".

والمساءات كانت تنعم بالدفء والألفة حين تجلس رحمة لتحكي لي عن حياتها، تلك الحياة الغريبة والمؤلمة..

إلهي لماذا يتألّم الطيبون كلّ هذا الألم، ولا يعلمُ الجزاء إلّا أنت؟

بعد أن مرّتِ الأيَّام الأولى لإقامة رحمة معي، كانت أعراض آلام التذكّر وأحلام اليقظة بدأت في الانجلاء، لاحظتُ أنّ نومها لم يكن مستقرًا ولا يزال، لكنها كانت تتحسّن.. بدأ كثير من حدود التعارف في السقوط بيننا، كانت مُبهجة مثل أجنحة الفراشات الملوّنة، كانت باسمة مثل الصباح على حقل القطن الممتلئ، وحزينة مثل الأمل المفقود..

كثير من عاداتي قد تغيّرت بعد دخولها إلى هذه المساحة الانفرادية التي أسكنها وحدي. فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها، متوسّطة الطول.. أطول مني قليلًا، خمريَّة البشرة، وجهها صغير بيضاويّ دقيق القسمات تزيّن منتصف الخدّ الأيسر شامة رقيقة، تمّ تثبيت رأسها الصغير بدقَّة بالغة على عنق طويل يتناسب مع عرض المسافة بين الكتفين، والتي كانت أيضًا تتناسب مع قياسات جسدها الملفوف بطريقة مثالية. لها شعر فحميّ متموّج، كفَّان جميلتان بأصابع طويلة متناسقة تمامًا، غير أنّ نعومة بشرتها ولونها الموحّد كانا أمرين غريبين بعض الشيء، فمن المفترض أنها تعمل في جمع المحاصيل، أي أنها تتعرّض للشمس وتعمل بيديها دائمًا، الأمر الذي معه من المفترض أن تتأثّر بشرتها بكلّ ذلك بطريقة سلبية، إضافة إلى كفّيها الناعمتين الدقيقتين وقدميها اللتين يُلاحظُ الاعتناء الشديد بهما.

بعد مرور بضعة أيَّام على إقامتها معي لاحظتُ أن شعرها كان مصفّفًا، ظهر ذلك بعد أن غسلَتْه، كان ما زال ناعمًا وجميلًا، لكنني تيقّنتُ أنه كان مصفّفًا قبل ذلك، كيف يمكن أن تذهب هذه الفتاة المسكينة إلى صالون تجميل لتصفيف شعرها ولوضع طلاء أظافر بالغ الرقَّة والأناقة كالذي لاحظته على أظافر يديها عندما استقبلتها في ذلك الوضع المخيف من الضرب والتعذيب!

تعجّبتُ لكلّ هذه العلامات المثيرة للاستغراب، لكنني مع وجودها الاستثنائيّ من حولي، وما أضفَتْهُ على حياتي من أجواء سماويَّة، لم أُعطِ الموضوع قدرًا كبيرًا من الأهميَّة، اكتفَيتُ فقط بسؤالها عن طلاء الأظافر في شكل دعابة سريعة، ضحِكت هي عليها بشيء من المرارة، وأجابتني بأنها

وسيلة للتخفيف عن نفسها وسط كلّ هذا القهر والضغط، وأنّ جارتها التي تعمل في صالون صغير للتجميل هي التي وضعت طلاء الأظافر لها عندما زارتها قبل أن يفعل بها حامد ما فعله ببضعة أيام..

كنَّا نقضي أوقاتًا مطوّلة معًا، وعندما كنتُ أنسحبُ إلى مغارتي المقدّسة، في انتظار عفاريت الوحي بالقرب من قطعة النحت التي أعمل عليها، كانت إما تخرجُ للشرفة، وإما تذهبُ لخلوتها الخاصَّة في الغرفة المجاورة التي أصبحت مؤخّرًا غرفتها..

وفي ليلةٍ من تلكَ الليالي التي تتصلّب فيها الأصابع وتتجمّد فيها المّخيّلة لدرجة أنني أنظر لقطعة النحت كأنّ أحدًا سوايَ قام بتنفيذِها، وليس لديّ أدنى فِكرة عمَّا يُمكنُ أن يُضاف إليها، شعرتُ بأنّ عفاريتي الموحية بدلًا من أن تفتحَ الأبواب لخيالي سكبَتْ يأسًا مُحكمًا على قلبي، فذهبتُ إلى النافذة قليلًا ثمّ شغّلتُ موسيقايَ المفضّلة، واستلقيتُ على سريري أُحدّق إلى فضاءٍ لا نهائيّ صوب السقف، وأمسح ظهر صاحبي الذي يستلقي جواري..

في مرحلة ما خلال فترة استغراقي في ذلك الفضاء الأبيض الممتدّ، جذبتني أنامل رحمة الخفيفة، وهي تربت على كتفي وتسألني إن كنتُ بخير، أفقتُ ونظرتُ إليها كأنني أحاول تذكّرها وتذكّر ما جاء بها إلى هنا من الأساس..

- شكلِك مزاجك كدا متغيّر.. إيه رأيك نعمل حفلة أنا وانتي لوحدنا؟

- حفلة؟

(أجبتها وقد ارتفع حاجبيّ كأنّ شيئًا ما جذبهما ولم يعُد في وسعي إنزالهما كما كانا).

- آه حفلة.. مش الكمبيوتر بتاعك دا بيجيب أغاني؟

- آه يا ستي بيجيب أغاني.. عايزة أغنية؟

(سألتها وما زال التعجّب والدهشة معًا يعملان عملهما على ملامحي).

- خلّيكي معايا بس، والله هتروقي وتنسي كلّ اللي مزعّلك..

- ماشي مانا وراكي أهو، قولي عاوزة أغنية إيه؟

طلبت منّي أغنيةً، حمَّلتُها، ثمّ اكتشفْتُ بعد ذلك أنها أغنية شعبيَّة صاخبة، ما إن شغَّلتُها حتى بدأَت رحمة في الرقص جاذبةً ذراعيّ إلى الجزء الخالي من الغرفة طالبةً منّي أن أشاركها في "الحفلة"..

لم أشعُر بنفسي إلا والأغنية تسيطر عليّ وتقودني معها لأشاركها في الضحكات وفي الرقص، كانت أغنية طويلة، ظللنا نرقصُ حتّى آلمني جنبي، وبدأنا كلانا نلهثُ، لكننا لم نتوقف عن الضحك، ولم يتوقّف صاحب عن التقافز مشتركًا معنا في ذلك الجوّ الجنونيّ الفرِح.. كانت ليلة حميميَّة عفويَّة صاخبة ومفعمة بالبهجة..

تهالكنا على ظهرينا على السرير تعبًا بعد انتهاء الأغنية، تضحكُ إحدانا حينًا فتتبعها الأخرى ضاحكة، ظللنا هكذا للحظات، ثمّ التفتَتْ إليَّ رحمة:

- أبلا زين.. هو إنتي... حبيتي قبل كدا؟

لم أتوقّعْ السؤال، أو ربما هو أمر كنتُ أتجنّب التفكير فيه منذ زمن.. منذ آخر جرح.. منذ آخر بكاء تسقط الدموع فيه من القلب قبل العينين..

- تصدّقي إني مش عارفة يا رحمة؟ حبيت قبل كدا؟ يمكن.. يمكن أكون حبيت.. بس الأهم.. أنا اتحبيت قبل كدا؟ مش عارفة..

بس إيه السؤال دا؟ شكلك إنتي اللي حكايتك حكاية.. قوليلي بقى..

احكي..

(بدا عليها خجل جعلها تغمض عينيها قليلًا وتتنهّد..).

- أنا ماعرفش يا أبلا.. بس أنا عارفة إنو مش شايفني أصلًا.. أنا فين وهو فين.. أنا كنت ببصّ عليه دايمًا وهو رايح الجامعة، ولمّا يغيب شوية ومايعَدّيش من شارعنا، كنت بازعل.. مابقاش فرحانة... هو ساعات كان بيبُص لي لما أرُوح أطلّ على الست فايزة والدته لما أمّي تكون باعتالها جبنة والاّ حاجة، بس أنا عارفة إنه بيبص لي عادي.. يمكن يكون بيقول لنفسه دي جاهلة ومش متعلمة.. يا لهوي.. الأستاذ سمير ابن الحاج برهان يبص لي أنا؟

- وإيه يعني يا رحمة.. مالهاش علاقة على فكرة.. دي حاجة مالهاش دعوة لا بتعليم ولا بنسَب..

- أنا ساعات بقول لروحي.. لو يتجوز ويسافر بعيد عن شارعنا.. يمكن لو بطّلت أشوفُه أبطّل افتكرُه.. الغلابة مالهمش الاّ الغلابة يا أبلا زين.. والمتعلمين يحبو اللي زيّهم.. بس بارجع أقول، أهو أنا بشوفه وخلاص.. كفاية إني لما بشوفه بأحس إني حلوة.. بأحس إن الدنيا شكلها جميل.. جميل أوي يا أبلا..

(.....).

أحيانًا لا نجد ما يُمكننا تعزية الآخرين به، نشعر أننا ينبغي علينا تعزية الدنيا بأكملها، الدنيا التي انقتل فيها العدل منذ زمن بعيد.. صمتَتْ رحمة وهي تزفر زفرة كادت تحمل قلبها المسكين معها بعيدًا عن صدرها، ثمّ ابتسمَت وهي تنزل لتجلس جوار صاحب وتلفّ ذراعها حول عنقه قائلة:

- ما ترسميني أنا والأخ دا يا أبلا زين..

التفتتُ إليها وقد نبّهني طلبها، وابتسمت..

- تفتكري هاعرف؟

- تعرفي طبعًا، ماتعرفيش ليه؟

صمتُّ لحظة وأنا أقول لنفسي هل هناك من يستطيع رسم الرّحمة؟ ثمّ أعجبَتني الفكرة، وكانت لا تزال رحمة تتوسلني لرسمها برفقة صاحب..

- عموماً، إنتي حُرَّة هارسمك ولو طلعتي متشلفطة ماليش دعوة..

أحضرتُ ورقة رسم متوسطة، وجلستُ أرسم صاحبي الوفيّ بين ذراعي صاحبتي الجديدة، أتصنّع الجديَّة وأكتم الضحك، وهي كذلك، كلّما مرّت بعض الدقائق انطلقت من إحدانا ضحكة قصيرة تبعتها الأخرى بمثلها، نظرتُ للرباط الأسود حول رسغها وأنا أرسم، والتفتُّ إلى شبيهه حول رسغي أنا أيضًا..

- الرُباط الأسود دا أنا مش فاهماه خالص يا رحمة.. إنتي متأكدة إنه بيجيب الخير، والاّ مراة خالك دي بتشتغلنا كلنا؟

- لا إزّاي يا أبلا ماتقوليش كدا.. الكلام دا مش حلو ليكي..

- يا شيخة؟ هيجرالي إيه؟ الأرواح هتاكلني والاّ إيه؟

- بتترقي عليا يعني؟ أنا ماتعلمتش بس مش جاهلة أوي كدا.. لأ الرُباط دا خير والله.. دا بيمنع الحاجة الوحشة.. أنا هقول لك.. أصل مراة خالي كانت عمتها أخت أبوها عملت لها زيه وهي صغيرة يمكن من سني كدا، وفيوم النار قامت مولّعة ف بيتهم، كانت حريقة كبيرة خالص، وكانت هي لوحدها، كانت بتخبز عيش، النار أكلِت البيت كلّه وماحدش عرف يطلّع مراة خالي، البيت ولّع بيها، وامَّا طفّو الحريقة، لِقيوها واقعة عالأرض والنار ماجتش ناحيتها.. ماتلسعتش فيها شعراية.. من يومها واحنا بنتبارك بالرباط دا كلنا..

كنتُ أستمع إلى حكايتها باهتمام كبير، ما أجمل أساطير البُسطاء! حتى انتهيت من رسمهما بطريقة سريعة، كانت أنهَت حكايتها عن أسطورة الرباط الأسود، وقرأَت على ملامحي أنني انتهَيتُ من الرسم.. أشرتُ إليها أنني انتهيت من الرسم فعلًا وأنا أقول مازحةً:

- خلّصت.. تلاتين جنيه بس يا أستاذة..

قامت لتشاهد الرسم وهي تقول:

- لأ، دا انتَ نصَّاب أوي يا عمّ.. تلاتين جنيه إيه؟ همَّا بس... يا لهوي! إيه دا؟! دا الكلب شكله بني آدم عنّي.. كدا يا أبلا؟

ظللْنا ننظر إلى الرسم ونضحك ضحكًا جنونيًّا يُضاهي الضحك الناتج عن نكتةٍ إباحيَّة مُحكَمة الصياغة أُلقيَت بين مجموعة من الشباب المتسكّعين وهم في حالة سُكْرٍ بيّن!

* * *

مرّت الأيام على هذا النحو السحريّ، وكان يمرّ ببالي التساؤل الذي أثاره كشف رانيا على رحمة، لكنني كنتُ دائمًا أتجاوزه، شعرتُ بأنني لا أريد إفساد صورتها، أو حتى الدخول القاهر إلى عالمها الخاص، كنتُ أكتفي بما ترويه لي من أحداث وتفاصيل عن حياتها بكامل رغبتها، فنحن الذين نمتلكُ المقدرة على تشويه الصُوَر أو تجميلها دائمًا..

بداية من اليوم الخامس لإقامة رحمة عندي، كنتُ قد بدأت العودة للعمل وتركها بمفردها مع صاحب في البيت، وعند عودتي من العمل ذات يوم، وقبل أن أديرَ المفتاح في باب الشقة، تسرّب إلى أذني صوت غناء ما، ينبعث من داخل الشقة، دخلتُ إلى المنزل لأجد رحمة تقف أمامي وتبتسم وقد شغَّلَت أغنية لم أستوعب كيف حصلت عليها.. "آه يا زين.. آه يا زين.. آه يا زين العابدين.. يا زين.. يا ورد مفتح جوا البساتين...".

تهلّلَت ملامحي فرحًا وتعجبًا معًا..

- إيه دا؟ حفلة تانية؟ إنتي جبتي الأغنية دي منين؟ وشغلتي الكمبيوتر ازّاي أصلًا؟

سألتها باستغراب وحماسة كبيرين..

- مفيش، في واحدة ستّ تعرفك بتقول صاحبة الشقة اللي فوق خبّطت من شوية، كانت بتسأل عليكي، قُلتلها تجيبلي الأغنية دي من الكمبيوتر، هي صحيح استغربت أوي منّي، بس المهم إنها دخَلِت جابتهالي وشغلِتها، ومن ساعتها وأنا سايباها تشتغل وتتعاد..

أجابتني بابتسامة كبيرة، ابتسامة لن أنساها ما حييت..

ثمّ اقتربَت إليّ وهي تحمل ورقة من أوراق الرسم، رسمت صاحب عليها، ووقّعَت أسفلها باسمها بطفوليَّة شديدة..

- دي هديَّة منّي ليكي، علشان أنا همشي بقى..

- تمشي إيه بس؟ وبعدين دي هديَّة دي بالذمة؟

أجبتُها بابتسامة، ابتسامة شخص حزين، يعرف أنّ العالم السحريّ لا يُمكنه البقاء على الأرض كثيرًا، لكنه ما زال يُحاول التعلّق به..

* * * *

obeikan.com

(١٩)

رحلَت التي كانت تحمل الحقول على كتفيها، رحلت حاملةً معها الدفء والبسمات وأطفال الملائكة الطيبين، وعادت الصحراء للتمدّد من حولي من جديد..

عانيتُ كثيرًا من تشنّجات المزاج المُلحَّة، كلّما كنتُ أحاول الخروج أو مقابلة الأصدقاء، كنتُ أشعر بأن شيئًا ما في داخلي يبحث بإلحاح شديد عن شيء ناقص، يبحث عن روح، عالم، حياة.. يبحث دون جدوى..

غريبة الأطوار. هكذا كان يراني كثيرون ممّن يُولعون بفكرة تحليل الشخصيات وقراءة الوجوه. لا أنكر أنني كنت في فترة ما أنزعج لهذه الافتراضات وهذه الأحكام التي يُصدرها أولئك البشر دون وجه حقّ أو أدنى دِراية، لكنني بعد ذلك صرتُ لا أبالي، فمن يقومون بذلك إما يحاولون الإثبات لأنفسهم وللمحيطين بهم أنهم على قدر من الذكاء والفطنة لا مثيل له وأنهم يمتلكون بُعدَ نظر يستطيعون به قراءة البشر والتدليل على ما يقولون بتفسير كلام الأشخاص وحركات أجسادهم بطريقة في الغالب ما تكون من وحي خيالهم لا أكثر، وإمَّا أن يكونوا يُعانون من حالة من عدم الثقة واهتزاز الذات الذي لا يداويه إلّا أن يبحثوا عن عيوب الآخرين ليُقنعوا أنفسهم بأنهم في حال أفضل من سواهم، والحالة الثالثة أن يكونوا خبراء علم نفس مُحقّين فيما يقولون.

ربما أكون منطوية بعض الشيء، هذه هي طبيعتي على كلّ حال، وجدتُ العالم كلَّه مختصرًا في قليل من الأصدقاء، وكلّ الحبّ معتصرًا في قلب صاحبي، هذا الذي يتقافز من حولي الآن ويلعق أُذني..

أتذكّر أنني في يوم ما، كنتُ حاضرة في حفل موسيقي في المسرح الصغير بدار الأوبرا لفريق من الشباب كان أحدهم صديقي، حازم عازف القانون - كم تخطف قلبي الآلات الوتريَّة!- وبعد انتهاء الحفل، خرجنا جميعًا في مجموعة كبيرة من الأصدقاء المشتركين، بعضهم أعرفهم والبعض الآخر لا، لكنني في وجود حسن أشعر بأنني على ما يرام دائمًا. تعرّفت في ذلك اليوم على شاب من أصدقاء حازم، كان اسمه "زياد"، يمتلكُ مواصفات شاب تنجذب إليه الفتيات منذ النظرة الأولى، متوسّط الطول، قويّ البنية، قمحيّ البشرة له شعر قصير كستنائيّ اللون يقترب إلى لون عينيه، لحية خفيفة مهذبة بعناية، ذراعان مرسومتان، وأنامل فنيَّة.

أعتقد أنه حدث بيننا إعجاب متبادل بعد أن استمرّت السهرة لوقت طويل إلى حدّ ما. بدأنا في التقارب بعد ذلك لمدَّة دامت تقريبًا حولي ستة أشهر لا أكثر. حاولتُ أن أُجمّل صورته في عينيّ كثيرًا، لكنه كان يختلف كلّية عما يوحي به مظهره من الجديَّة والمعرفة، كلّ اهتماماته كانت مفرطة التقليديَّة، لا يقرأ على الإطلاق، وينظر للقراءة على أنها رفاهية ووقت ضائع، موسيقاه المفضّلة مزعجة إلى حد كبير، على الرغم من أنني التقيته أول مرة في حفل موسيقي يختلف كثيرًا عن النوع الذي يُفضلهمن الموسيقى، لكنني فهمت فيما بعد أنه حضر على سبيل المجاملة. يفرط في الحديث عن السيارات وكرة القدم، باختصار، شاب من أولئك الذين يُضرب بهم المثل في التفاهة وانعدام الفائدة، إضافة إلى

كل ذلك كانت هناك صفة أصيلة فيه، وكانت هي سرّ ابتعادي عنه، وهي ميله الدائم للاستمتاع باستخراج عيوب الآخرين والسخرية منها، الفتاة التي تقرأ هي تحاول جذب الانتباه لا أكثر، الشاب الذي يرتدي قميصًا عاديًّا ولا يطوون أكمام القميص إلى أعلى الذراعين ولا يهتمّ بتهذيب لحيته هو شاب أحمق، ومن المؤكّد أنه فاشل في تكوين علاقات عاطفية.. إلخ.

نعم، هي الوحدة قدَري الذي لا أعترض عليه، بل على العكس أشعر بأنها الوضع الأمثل الذي يُمكن لمثلي أن يتعايش معه، أشتاق لأخي ولوالديّ، لكنني عندما أُتصوّر أنّ هناك من يُمكن أن يشاركني مساحتي الخاصة، أختنق حينئذٍ ويتوتر تفكيري. لذلك أتعجّب من أنني أفتقد وجود رحمة إلى هذا الحدّ، وأتذكّر أدقّ التفاصيل الخاصة بفترة إقامتها معي..

* * *

لم أعُدْ للعمل على المنحوتة منذ ثلاثة أيام، كنتُ أستلقي ليلًا على السرير، أُسند ظهري للجدار، أقرأ أحيانًا وأحتضن صاحبي دائمًا، كان ينظرُ إلى عينيّ مستفهمًا، كأنه يسأل عنها، ويسأل عنّي، كان حزينًا مثلي ومن أجلي.

في طفولتي كنتُ أتوهّم أنّ صوتي جميلًا، وأنني سأصبح مطربة ذات يوم، لكنني كبرتُ لأتأكّد أنه لا يوجدُ على وجه الكرة الأرضيَّة ما هو أقبح من صوتي حين أغني، وعلى الرغم من ذلك كان صاحبي يحبّ غنائي له، كان جمهوري الوحيد، يحرّكُ أذنيه ويتابع شفتيّ حين أُغنّي له عندما نجلس

سويًّا وحدنا، لم أحتجْ يومًا لصديق أوفى من صاحبي، ولا أكثر قدرة على قراءتي منه..

خرجنا معًا في نزهة قصيرة للحديقة العامة القريبة من منزلي بعد رحيل رحمة بنحو أربعة أيام، لم أستمتع كثيرًا بحالة الجوّ يومها، فقرّرت العودة سريعًا، لذلك لم يكن صاحبي سعيدًا كالمعتاد عندما عدنا إلى البيت.

- أنا آسفة.. بس انت شايف الجوّ..

(هزّ أذنيه وطأطأ رأسه، وحدّق إلى الأرض، ولم ينظر إليّ).

- طيّب..

(ذهبتُ لإحضار الكرة وبدأت في قذفها والتقاطها، لكنه لم يُتابعْها، ذهب وتكوّم جوار باب الخروج وتظاهر أنه يريد النوم).

- ماتبقاش دمّك تقيل كدا..

(قذفت الكرة ناحيته، وناديتُ عليه).

- هات الكورة بقى عايزة العب معاك.. بكرة هنخرج تاني ومش هنرجع بسرعة.. وعد بجد على فكرة..

(رفعَ رأسه وبدأ في النظر تارة نحوي، وتارة للكرة، ثمّ قفز وذهب لالتقاطها حملَها بفمِه وهرول إليّ، جلس يهزّ ذيله متحمّسًا ثمّ اقترب إليّ ووضعها في كفّي).

- حد قال لك إنك أجدع صاحب في الدنيا؟

(جلسْت أمامه واحتضنته طويلًا، لا أدري لماذا شعرتُ أن ألمًا ما، يشبه دبوسًا طويلًا ينغرس في قلبي، يمرّ ببطء فيزداد الألم، حتى امتلأَت عيناي بماء دافيء، مسحتُه سريعًا، ووقفت).

- إيه رأيك أنا هعمل لَك حاجة انت بتحبها..

ذهبتُ إلى الحمَّام، وبدأتُ في ملء المغطس، صاحبي يُحبّ الماء أكثر من الكرة ذات الجرس، جلست على سور المغطس واضعة قدميّ في الماء، فقفز صاحب صانعًا بقفزتِه عاصفة مائيَّة أغرقَت الحمَّام بما فيه وأغرقَتني تمامًا..

- إيه رأيَك بقى؟ خلاص متصالحين؟

بدأْتُ في رفع الماء وسكبه على رأسه وظهره وتمرير أصابعي بين شعره الكثيف، كان سعيدًا، متهلّلًا، يلعق ساقَيّ ويضرب الماء بكفّيه..

- عارف يا صاحبي.. بيتهيألي انت لو مش معايا كان ممكن أبقى أهمّ حالة في العباسية.. إنت رأيك إيه في الحكاية دي؟

(رفع حاجبه الأيسر ونظر إليّ بعين واحدة ثمّ تابع ضرب الماء بكفّيه..).

- أنا بقول كدا برضه.. بذمّتك انت مش متضايق إن رحمة مشيت؟ أنا كمان متضايقة..

(رفع رأسه ونظر إليّ موافقًا على ما أقول..).

- أنا عارفة إننا متعودين نقعد لوحدنا، بس بصراحة مش عارفة، هي كانت عاملة جوّ مختلف للبيت.. صح؟ طيّبة هي أوي.. عادي بقى.. عادي كلّ الناس بتمشي.. مش مهمّ أصلًا..

-واصلَ اللعِب في الماء ولَعْقَ كَتِفِه، أعتقد أنه تعوّد على عدم وجودها وبدأ في العودة لنظامنا القديم..

- هوّ حِلو إن إنت ماتبقاش متضايق أوي.. عارف ليه؟ علشان كان ممكن أنا وانت نبقى آخر كآبة.. أنا هقول لك.. إنت تتعلم تتكلم كدا زي ما بكلمك.. وأنا أوعدك ما زعلش على أيّ حد تاني.. يا صاحبي أنا عارفة إنك بتكلمني.. أنا عارفة بس أكيد ساعات ببقى عايزة حد يكلمني زي ما أنا باتكلم كدا.. إنت فاهمني والاّ إيه؟

(رجع إلى الوراء خطوتين ثمّ رفع قائمتيه الأماميتين وأسندهما على ركبتيّ، وبدأ في لعق وجهي، ثمّ توقّف ونظرّ إليّ ووجهه يكاد يلامس وجهي..).

- كلامك صح.. حسن.. أنا بقالي كتير ماشفتوش..

* * *

كان حسن هو الأقرب إليّ دائمًا من بين جميع المعارف والأصدقاء، حاولتُ حضور بعض بروفات عرضه المسرحيّ الذي كان يُجهز له، دائمًا ما كنت أعشق حضور بروفات المسرح، ذلك المكان الساحر، لكنني من بعد رحيلِها، كنت أشعر بالملل سريعًا، هناك لغة للروح، تلك اللغة التي عندما نجد من يُجيد الحديث بها لا بدّ أن نتمسّك به إلى أقصى الحدود، لأنّ العثور على من يتحدّثون تلك اللغة أشبه بمعجزة في عصر لا يُصدّق الناس فيه في المعجزات. أعتقد أنني وجدتُ هذه اللغة مرَّة واحدة عندما التقيتُ رحمة، لكنني لم أستطِع الاحتفاظ بها..

بدأ حسن يلاحظ تغيُّري غير المفهوم، حسن ذلك الرجل الذي توجدُ في داخله أمٌّ واسعة الحنان..

في مثل تلك الحالات نشعر بأننا لسنا في حاجة إلّا إلى شخص يستوعبنا، يعطينا الفرصة الكاملة لنتكلم إذا أردنا الكلام، نصرخ إذا انفجر في داخلنا الصراخ، ويتركنا نرحل إذا أردنا الرحيل، شخص يُلغي نفسه كلّيةً من أجل إنسان يُعاني أزمة ما، حتى ولو لم يكُن يُدرك أبعاد الأزمة الحقيقية.. لكنه بكلّ نفسه يهتمّ.. إنه الاهتمام.. هو كلّ ما كنتُ في حاجة إليه دائمًا..

بدأتُ بعد مرور بضعة أيام في استعادة قدرتي على الانفتاح والكلام، حكيتُ لحسن عن رحمة، وسميرة، عن تلك الأيام التي قضيتها في عالمٍ ناصع البياض، عالم يُشبه العالم الموجود خلف بوَّابة خفيَّة نراها في الحُلم، ندخل إليها فنستشعر السعادة كما ينبغي للسعادة أن تكون، ونخرج منها فنستشعر الحزن كما ينبغي للحزن أن يكون..

كان ينظر إليّ وهو يستمع للحكاية بكلّ اهتمام، كان ذلك الشخص الذي تشعر وأنت تكلمه أنك لست في حاجة لشرح مُفصّل، هو يستطيع القفز إلى داخلك، يستطيع تقمّصك.. بل يستطيع أحيانًا وصف الصورة بطريقة أفضل مما تفعل أنت..

* * *

مرّ شهران على رحيل رحمة، حاولتُ العمل على قطعة النحت كثيرًا، لكنني كنتُ أشعر بأن روحي تسير باتجاه مخالف.. ألغيتُها وبدأت في تكوين جديد..

ذراعٌ تخرج من لهبٍ متتطاير، في كفّها وردة.. وحول رسغها.. رباط..

* * * *

(٢٠)

ظلامٌ دامس، أضواء خافتة ملوّنة تنساب من السقف المرتفع، على الأرض مجموعة من الأجساد المتباعدة، كلّ واحد يتكوّم على نفسه، تدقّ الطبول بشكل يرتفع تدريجيًا، دقّات عنيفة تبدأ معها الأجساد المتكوّمة في الحركة ببطء، رأوسهم تتدلّى للأسفل، يستندون أولًا كل واحد على قبضة واحدة، ثم قبضتين، ببطء.. ببطء، ترتفع قدم واحدة، تتبعها الأخرى، يتجمّدون للحظات، تبدأ الأضواء في الدوران، تتحرّك الظلال من تحت الأجساد الثابتة، تتعالى الدقّات، ثمّ ترتفعُ الرؤوس جميعًا وتتفتّح الأعين كلها دفعةً واحدة إلى الأمام، يُضربُ ضوء مائل للاصفرار على الوجوه، وجوه عابسة، غاضبة، مخيفة، يبقون على وضع القرفصاء ناظرين إلى الأمام، العيون جامدة، والوجوه تُلقي الرعب في القلوب، يبدأون في الطرق بقبضاتهم على الأرض، دقّات عنيفة تختلط بدقات الطبول.. فجأة.. يضرب كل واحد صدرهُ ضربتين متتاليتين يصلُ صوت الضربات إلى الأسماع، ينتفض الجميع معًا بقوَّة، فينفجر منهم غبار كثيف يشبه عاصفة الدُّخَان، يغطّيهم بالكامل، ينقشع رويدًا رويدًا كاشفًا عن الجميع.. واقفين في أماكنهم.. يتقدّمون ببطء وهم يضربون بأقدامهم الأرض من تحتهم صانعين بذلك ضجَّةً كبرى، يشتدّ الضوء، تظهر الأجساد كاملةً، حفاة، يرتدون ثيابًا مهترئة، تخفت الطبول، يبقى

صوت ضربات الأقدام، ويبدؤون جميعًا في الأنين المشترك.. يستمرّ الأنين، ويرتفع الدُّخَان..

ينسدلُ الستار، ويرتفع التصفيق، وتنطلق صفارات الإعجاب، تُضاء أضواء المسرح..

وتخلو القاعة من المتفرجين شيئًا فشيئًا..

* * * *

obeikan.com

(٢١)

بعد ساعات من انتهاء العرض الأول للمسرحية التي أخرجها المخرج حسن ثابت، وفي المقهى المعتاد..

- مبروك يا حسن..

- إيه رأيِك؟

- إنت عارف، أقول إيه.. تحفة طبعًا..

- فعلًا؟

- أنا مابعرفش اتكلّم كتير يا حسن، بس بجد حالة.. حالة مختلفة جدًّا.. انت فنَّان حقيقي.. كان نفسي أمينة تبقى معانا، مش مصدقة إنها بقالها سنتين مسافرة.. وحشتني أوي بصراحة..

- أنا كمان كان نفسي تبقى معانا..

ابتسمَ ابتسامةً تليق بتلك اللحظة، قبل أن يسألني

- في أخبار من رحمة؟

هززتُ رأسي نفيًا.. فأكمل قائلًا:

- طيّب.. أنا ماحبّتش أسألك السؤال دا لما سمعت منك الحكاية كلها، بس بيتهيألي لازم أفهم إنتي كنتي بتفكري ازّاي وقتها.. إنتي مُدركة اللي إنتي عملتيه؟

- عملت إيه مش فاهمة؟

- ازّاي تدخّلي ناس عمرك ما عرفتي حاجة عنهم بيتك؟ ناس كان ممكن يعملو فيكي حاجة، بلاش يعملو فيكي حاجة، كان ممكن يسرقوكي يا ستي.. أعتقد أنك عندك وعي كافٍ مايخليش حاجة زي كدا تطلع منك يا زين.. والّا إيه؟

ظللتُ أنظر له عجبًا واستغرابًا..

- أنا مش مصدقة اللي انت بتقوله.. أيوة أنا معاك إن ممكن تصرّفي في الأول يكون مُندفعًا.. بس دلوقت مفيش مجال أصلًا للكلام دا.. أنا بفكّر في أزمة إنسانة بتِتضِرب وبتتهان وماحدش عارف إيه اللي هيحصل لها تاني، وانت تقول لي كان ممكن تسرقك! تسرق إيه يا حسن؟ الطين والّا الفُرَش؟ معلش من فضلك، انسَ الحكاية دي، ومتتكلمش فيها تاني.. هيّ أصلًا ليها ربنا بقى هيّ واللي زيّها ما دام الناس بتفكر بطريقتك دي..

صمتنا كلانا وقتًا قصيرًا، لا أُنكر أنني فكّرت فيما قاله، لكنني كنت أطرد كل هذه الصور المُتخيّلة عن أن رحمة كان من الممكن أن تُشكل خطرًا أو ضررًا لي، كيف لهذه المخلوقة أن تحمل مثقال ذرّة من الشرّ، وخصوصًا ناحيتي، رحمة لم تكذِب، كانت صادقة تمامًا في كلّ شيء..

- هتعملي إيه في دعوة المعرض اللي باعتهالِك ممدوح سيَّاف؟

قاطع صمتي وتفكيري بهذا السؤال.. فأجبته باقتضاب:

- بفكّر لسة، لو خلّصت في وقت مناسب يمكن اشترِك..

- أنا شايف إنها فرصة كويسة أوي، ركّزي واشتغلي أكتر.. أنا عارف إنك هتقدري..

ابتسمتُ ابتسامةً باهتة وهززت رأسي موافقةً..

استمرّ الحديث حول أجواء عرضه المسرحي، وبعض الأمور الأخرى لبعض الوقت، كانت حدَّة موقفي الدفاعي الذي اتخذته تجاه حسن لصالح رحمة قد بدأَت في التناقص شيئًا فشيئًا، كان ذلك قبلَ أن نُغادر المقهى للتسكّع المقدّس في شوارع وسط البلد..

* * * *

obeikan.com

(٢٢)

بعد يومين من عرض حسن المسرحيّ، هاتفَني سامي ليُخبرني أنه قد أرسل إليَّ مظروفًا على عنوان عملي، وأنه من المفترض أن أتسلّمه في اليوم التالي. كان المظروف يحتوي على أوراق مهمة طلب مني سامي أن أوصِّلها بأسرع ما يُمكن لمكتب المحامي كريم الدياسطي المسؤول عن شؤون أُسرتنا القانونية.

ذهبت بالفعل لمكتب المحامي في المساء بعد حضور معرض لوحات مشترك لبعض الأصدقاء، وكان حسن حاضرًا المعرض معي كالعادة. يقع مكتب كريم الدياسطي المحامي في بناية من بنايات منطقة قريبة إلى وسط المدينة. كانت الساعة تقريبًا تجاوزت العاشرة مساءً، صففتُ السيَّارة بعيدًا عن البناية التي يقع فيها مكتب المحامي بعد رحلة بحث قاسية عن مكان شاغر، ترجّلنا وحملتُ المظروف واقتربنا سويًا إلى مدخل البناية. ألقينا نظرة على شرفات ونوافذ البناية، تقريبًا كان يوجد جوار جميع النوافذ لافتات تشير إلى مكاتب محامين ومهندسين، إضافة إلى المصادفة العجيبة التي تمثّلَت في وجود لافتة جوار نافذة في الدور الأخير تشير إلى مكتب رجل الأعمال ممدوح سيَّاف، أشرتُ إلى حسن لينظرَ إلى اللافتة وأنا أضحك وأقول "المجنون دا ورايا ورايا.. يا ساتر".

أخبرْنا رجُلَي الأمن الواقفين عند مدخل البناية أننا على موعد مع المحامي كريم الدياسطي فسمَحَا لنا بالدخول. كان حسن ينظر إلى تفاصيل البناية بشيء من الفضول مثلما فعلت أنا بالضبط، بناية من طراز قديم توجد إلى يسار المدخل صناديق البريد الخشبية القديمة، تتكوّن البناية من سبعة طوابق، بها مصعد يصلُ إلى الأدوار الزوجيَّة فقط. كان مكتب كريم الدياسطي في الطابق الثاني، صعَدنا على السلّم أنا وحسن، توجد لافتة جوار الشقة رقم ٨ إلى اليسار تُشير إلى أنه مكتب كريم الدياسطي. طرَقنا الباب، فتح لنا رجل مسنّ يعمل في تحضير القهوة والمشروبات ويعتني بنظافة المكتب وما إلى ذلك من أمور أخرى، لم يكن المحامي موجودًا، فتركتُ له المظروف مع عمّ فتحي الذي فتح لنا الباب، وكتبت اسم سامي كاملًا ورقم هاتفي في حالة احتاجه المحامي لأي سبب ورحلنا أنا وحسن..

عند خروجنا من البناية كان علينا المرور خلال مجموعة من الفتية والفتيات الذين لفتت نظرَينا غرابة مظهرهم، كانوا يقفون جوار مدخل البناية مباشرةً. ذهبنا إلى السيارة وبدأنا في التحرّك. بعد أن تحرّكت السيارة بضع خطوات توقّف الطريق "يمكن حادثة..."، علّق حسن وهو يحاول النظر من شباك السيارة لتحرّي الأمر.. "مش مشكلة، شوية ونتحرك..."، أجبته وقد كنتُ ما زلتُ أتابع مجموعة الفتية والفتيات الذين كانوا لا يزالون واقفين عند مدخل البناية، حتى إنني أدرتُ رأسي لمتابعتهم لفرط غرابة مظهرهم..

شابان، أحدهما ذو شعر طويل، ولحية قصيرة، يرتدي بنطلونًا ضيقًا من الجلد الأسود اللامع، مع سترة جلدية بلا أكمام، مفتوحة عند الصدر، تظهر من تحتها مجموعة من القلائد الجلدية والفضية، يربط عدة أربطة جلدية حول رسغَيه الأيمن والأيسر. والثاني أصلع تمامًا، غير أنه أبقى على سوالف طويلة تحدّ وجنتيه، يرتدي بنطلونًا ضيقًا كذلك بلون زِيّ الجيش المُموّه، و(تي شيرت) ضيّقًا فاتح اللون، ومجموعة من السلاسل المزدحمة حول رسغ واحد مع حذاء يبدو كأنّه نوع مستحدث من الأسلحة! في صحبتهما، ثلاث فتيات، واحدة خمرية البشرة لها شعر أملس طويل يصل إلى منطقة الوسط تقريبًا، ترتدي تنورة ضيقة قصيرة من الجلد الأسود، وسترة نسائية شفافة سوداء، لا داعي لها عمومًا، أعتقد أنها تعمل عمل الديكور المثير لا أكثر، حول رسغها ساعة ضخمة ذهبية وشيء آخر، ربما رباط، الثانية شقراء قصيرة القامة، غير متناسقة التفاصيل، ترتدي فستانًا قصيرًا من اللون الأزرق تنتشر عليه كثير من الحليات اللامعة، والثالثة باهتة البشرة شديدة النحافة لوّنت شفتيها بحُمرة داكنة اللون، وقصَّت شعرها الأحمر في شكل ذكوريّ، ترتدي بنطلونًا من القماش الأسود المطعّم بحليات برونزية عند منطقة الحزام به فراغات عديدة على طول الساقين من جهة الخارج، وصديرية سوداء تتدلى من أكتافها سلاسل ذهبية ضخمة إلى حد ما، والثلاث فتيات يرتدين أحذية لامعة ذات كعوب مفرطة الارتفاع..

يسيرون جميعًا ببطء نحو مدخل البناية ويتوقفون بين الحين والآخر يتكلّمون وأحيانًا يتضاحكون.. بدأ الطريق في التحرّك، فكان عليّ الاستجابة لأبواق السيارات التي تتوسلني لأفتح الطريق..

لاحظ حسن تركيز نظري في اتجاه الواقفين عند البناية، فعلّقتُ وأنا أتحرّك بالسيَّارة:

- شكلهم غريب أوي.. مش كدا؟

- فعلًا، بيعملو إيه دول هنا أصلًا؟ هو الناس بقت بتلبِس كدا هنا؟

- عارف.. أنا حاسة إني شفت البنت اللي شعرها طويل دي قبل كدا.. مش فاكرة فين..

عُدتُ إلى المنزل، وكنتُ لا أزال أتذكّر صورة الفتيات الواقفات عند مدخل بناية كريم الدياسطي المحامي، تلك البناية من المفترض أنها مُخصّصة للمكاتب الخاصة، رجال أعمال ومحامين، وأشياء من هذا القبيل، لكن ليس هذا ما يُهمّ، ما كان يشغلني هو لماذا أشعر بأنني رأيت تلك الفتاة من قبل؟

في صباح هذا اليوم، كنتُ استيقظت بمزاج يشبهُ محرّك السيَّارة المعطّلة، عادة لا يُخطئُ صاحب أخطاء جسيمة، لكنه اليوم يبدو أنه استيقظ أبكر مني بفترة ليست بالقصيرة فشعرَ بالملل، لفتَتْ نظرَه سُترتي التي كوَيتها في الليلة السابقة وعلّقتها على ظهر الكرسيّ خصيصًا لأرتديها لحضور عرض المسرحية، فقرّر أن يتعامل معها على أنها فرسيته الأخيرة! مزّقها إربًا بحيث كان عليّ أن أجمع فتاتها المتناثر في أرجاء الغرفة..

أعترف بأنني ثرتُ ثورةً أرعبَتْهُ منّي كثيرًا وقذَفْتهُ بعلبة التبغ التي لم تُخطئ وجهه الطيّب.. خاصمتُهُ وخرجتُ من المنزل دون أن ألقي عليه حتى نظرة، وبذلك أكون قد تركتُه وحدهُ اليوم ما يزيد على العشر ساعات، كان واقفًا – كعادتِه - وراء باب الشقة عندما وصلت، يهزّ ذيلهُ وتتدلّى أذناه جوار رأسه الكبير، يا لبلاغة نظراتك اللائمة يا صاحبي!

- إيه بقى؟ أنا آسفة.. بس شوف جبتلك إيه..

كلّمتُه، وأنا أفتحُ كيسًا من البلاستيك الخشن، ضوضاؤهُ أثارت فضول صديقي الوفيّ، كنتُ قد تذكّرت قبل وصولي للشارع الذي أسكن فيه ما حدثَ معه في الصباح، فانعطفت إلى شارع مجاور، توجد فيه بعض المكتبات الصغيرة ومحالّ البقالة، اشتريت كُرة من المطَّاط القويّ في داخلها جرس صغير، ستعجبه على ما أعتقد..

أخرجتُ الكُرة، وبدأتُ أقذفها وألتقطُها في الهواء، تهلّلَ صاحبي وبدأ يتقافز فرحًا وينبحُ للكُرة، قذفتها إلى ركن صالة المنزل فانقضّ عليها، وحملَها وسبقني إلى الغرفة..

نسيَ صاحبي إساءَتي إليه، وقبِل الهديَّة دون عتاب أو لوم.. من أين تأتي هذه الكائنات بكلّ هذا الحب وكل هذه المغفرة!

بدّلتُ ملابسي، وقضيتُ وقتًا في الحديث مع صاحبي حول عرض المسرحية ومجموعة الواقفين عند مدخل بناية مكتب المحامي، ثمّ بدأ الملل يضع أحماله ببطء على كتِفيّ، مضى زمن ولم أخُضْ حرب العساكر والملوك على رقعة المربّعات، قمتُ واتخذتُ موقِعي، اخترتُ المملكة السوداء، كُن جنديًّا تكُنْ كبشًا وأُضحية، كُن ملِكًا تكُن هدفًا تافهًا أو

شبحًا لا يقدر على حماية نفسه بمفرده، أو كُن حصانًا جامحًا حتى يُراهنوا كلهم عليك، لكنك حين تكون مؤلّفًا للُّعبة تصبح إلها يرى ويمتلك المصير..

ليست لعبة، إنما هي كون آخر، يُمكنك دخوله كما شئت، ولك الحقّ في اختيار موقعك، ستمتلك المقدرة على اختيار خطوتك القادمة، لكنها خطوة محددة سلفًا.. خصمي يجلس في الجانب الآخر من رقعة الشطرنج أمامي.. يبتسم لي غِلًا وينفث دخانه في وجهي، الدُّخَان يُعمي العينين أحيانًا، لكنه يستفزّ البصيرة! سيستمرّ اللعب والنتيجة على بعد خطوتين..

* * * *

(٢٣)

من حقّ صاحبك أن يغيب، ومن حقّك أن تشتاق إليه.

شهران مرَّا تقريبًا على رحيل رحمة، دون اتصال أو زيارة. قتلَها حامد؟ ربّما، تزوّجت؟ يُمكن.. الاحتمال الأوّل منَ الجائز ألَّا أعرف به، وخصوصًا أنّ سميرة توقّفت عن الاتصال بي منذ فترة طويلة، لكن الاحتمال الثاني يبقى احتمالًا واردًا، ولا أعتقد أنه من الممكن ألّا تُخبرني به رحمة..

انشغلتُ بمنحوتتي الجديدة، ولقاءاتي بحسن التي ارتفعت نسبة حدوثها في الفترة الأخيرة، لم تكُن تغيب رحمة عن خاطري كثيرًا، كان الرباط الأسود صورة مجسّدة لتعلّق ذاكرتي بها.

في مساء أحد الأيام خلال لقاء من لقاءاتي بمجموعة من الأصدقاء هاتفني سامي ثانيةً ليُبلغني أنه بحاجة لإرسال ورقتين إضافيتين للمحامي، وأنني سأجدهما في دولاب ملابسه.

عدتُ إلى البيت وفتّشتُ عن الورقتين، لم أحتج لبذل جهد استثنائي في التفتيش، وجدتهما في الرفّ العلويّ تحت مجموعة ملابس مطوية بعناية، سامي يُقدّس التنظيم والأماكن المرتبة بدقَّة. في اليوم التالي ذهبتُ وحدي إلى مكتب المحامي، كان موجودًا هذه المرَّة في مكتبه.

* * *

كريم الدياسطي محامي العائلة منذ زمن بعيد، لكنني لم أحظَ بلقائه من قبل. رجل يبدو على ملامحه أنه في أواخر عقده الرابع، نحيل لدرجة أنه يضطرّ لعقد حزام بنطلونه إلى الحدّ الذي تظهر معه أعلى البنطلون بعض الثنايا الطوليَّة الدخيلة على تصميمه، في إمكانه شراء بنطلون يلائم قياساته، لكن لا بأس يبدو أنه لا يحبّ التغيير. يربط أزرار القميص حتى آخرها ويعقد حول عنقه ربطة عنق من طراز ميّت ومدفون منذ زمن لا يتذكّره أحد سواه. له شعر كثيف متوسط الطول يصفِّفه أيضًا بطريقة أكل عليها الزمن وشرِب، بدأ الشيب في ملاحقة شعره من جهات متعددة، وظهر كثير من التجاعيد حول عينيه وحول شفتيه، كانت تلك التجاعيد كفيلة بإضفاء لمحة مثيرة على وجهه المتناسق لو لم تكُن له هذه العادات السيئة في اختيار ملابسه. تبدو عليه الجديَّة مع نظرات فاحصة ثاقبة..

سلّمتهُ المستندين، بدأ في فحصهما سريعًا، ثمّ أضافهما إلى المظروف الذي وصَّلتُه إلى مكتبه في المرَّة السابقة، وقال إنه سيقوم باللازم. هممتُ بالانصراف، ثمّ خطرَ لي أن أسأله:

- بعد إذن حضرتك، هو مكتب دكتور ممدوح في آخر دور مش كدا؟

- كان في آخر دور، هو قفله بقاله تقريبًا سنة ونقل في مكان تاني..

أجابني وهو يُرتّب بعض الأوراق على مكتبه، ويحمل حقيبته استعدادًا لمغادرة المكتب..

- فعلًا؟ طيب تمام.. الشباب اللي بيقفوا دايمًا عند مدخل العمارة دول شكلهم غريب أوي، بييجو هنا دايمًا؟

نظر لي من فوق إطار نظارته الطبيَّة والتي انزلقت إلى نصف عظمة أنفه، نظرة ارتياب، فسارعتُ بملاحقته قبل أن يجيب:

- مش مشكلة أنا بس استغربت من طريقة لبسهم شوية، عمومًا متشكرة أوي يا أستاذ.. فرصة سعيدة

- مفيش مشكلة، ماتبقيش تركّزي أوي كدا..

علّق وهو يضحك ضحكة ساخرة تفوح منها حماقة وبلاهة غريبتان.. حيّيته واستأذنت للانصراف..

* * *

مرّت نحو ثلاثة أسابيع بعدَ زيارتي الأخيرة لمكتب كريم الدياسطي، ولم أسمع أي خبر من أو عن رحمة. كنتُ قد أوشكتُ على الانتهاء من منحوتتي الأخيرة، ولم يبقَ إلا جزء أخير يحتاج إلى بعض التعديلات. أمَّا عن العمل فقد كان يسير على نفس الوتيرة المملَّة، نفس الوجوه، ونفس العادات اليوميَّة، إضافة إلى بعض الأحاديث الجانبية التي انشغل بها كثير من الزملاء حول وضع ممدوح سياف في مجلس الإدارة. بعضهم يقول إنه استقال، والبعض الآخر يؤكّد أنه أثار مشكلة وتمّت إقالته، تتضارب الأقاويل، لكنني لم أكُنْ أهتمّ كثيرًا لأمر ذلك الشخص القبيح.

خلال تلك الفترة مررتُ نحو ثلاث مرَّات بالبناية التي يوجد بها مكتب المحامي في طريقي إلى وسط البلد، رأيت نفس الأشخاص الواقفين بمدخل البناية مرّتين خلاف المرَّة الأولى، غير أن الفتاة التي اشتبهتُ بها لاحظَت أنني أنظر إليها في المرَّة الأخيرة، التَقَت عيوننا مصادفة، حدّقَت إليَّ لحظةً ثم سارعت بعدها لتدخل البناية تاركة رفاقها واقفين بالخارج..

أصبحَت شكوكي تتزايد حول تلك الفتاة، رأيتها قبل ذلك، هنالك شيء ما يُشتت ذاكرتي التي تحاول تجميع الصورة، لكنني أقسم بكلّ ما يقسم به البشر أنني أعرف تلك الفتاة..

لماذا تلعبُ الذاكرة لعبة الكلب الميّت حين نحتاج إليها!

* * * *

obeikan.com

(٢٤)

- حسن أنا عايزة اطلع العمارة اللي فيها مكتب المحامي..

- ليه هتقابليه تاني؟

- لأ.. فضول.. اكتشاف.. أي حاجة

- الناس اللي واقفين في المدخل؟

- يعني..

- طب مش شايفة إن منظرهم مش مريح شوية؟ حلو الفضول والاكتشاف أنا معاكي أكيد، بس.. على الأقلّ الاتنين بتوع الأمن دول هتقوليلهم إيه؟

- هقول أي حاجة.. هقول طالعة للمحامي زي كلّ مرَّة، آه صحيح.. النهاردا الصبح كان في كلام في الشركة، بيقولو إن سيَّاف طلع من مجلس الإدارة..

- طب كويس أوي..

- ها هتيجي معايا مشوار العمارة دا والاّ إيه؟

- يا بنتي اهدي بقى.. في إيه بس؟ مفيش حاجة هناك تخليكي تحطي نفسك في موقف سخيف..

obeikan.com

- مش هيحصل حاجة على فكرة.. خليك متفائل.. هي كبرت فِدماغي بقى يا حسن، خدني على أد عقلي.. تيجي معايا أو ماتجيش.. هروح..

- استني بس، إحنا نروّح دلوقت ونبقى نفكّر في الحكاية دي المرَّة الجاية..

استقلّ حسن سيارته، بعد أن تأكّد من أنني ركبت سيارتي وأنني سأذهب للبيت بلا أدنى شكّ، كان يبدو عليه أن الفكرة لم ترُقه وأنه سيبذل جُهد سيزيف* وعناءه لينهاني عنها. انطلقتُ سالكةً طريق العودة وأنا أُفكّر في كلّ الاحتِمالات المُمكنة لما سيحدث عندما أذهب إلى هناك..

التفَفْتُ عائدةً إلى الشارع التي تقع به البناية، بعد أن خرجت من المنطقة تمامًا وتأكدتُ أنّ حسن لا بدّ أن يكون قد ابتعدَ كذلك عن المنطقة المحيطة، صففتُ السيَّارة في شارع جانبيّ، وحملتُ مجموعة أوراق كانت مبعثرة على الكرسيّ الخلفي لا أتذكّر شيئًا عن محتواها، والهاتف والمفاتيح، حتى أضفي على مظهري بعض الجدّيَّة..

لم يكُن لمجموعة الفتية والفتيات المعتادة أيّ أثر عند المدخل، سألني رجل الأمن عن سبب الدخول فأجبتهُ بأنني على موعد مع الأستاذ كريم الدياسطي المحامي، والذي لمحتُ أضواء مكتبه المُوقدَة من شبَّاك شقته المطلّ على الشارع، تلك تسهيلات القدر البديعة! يبدو أن الرجل ما زال

---

* سيزيف أو سيسيفوس كان أحد أكثر الشخصيات مكرًا، بحسب الميثولوجيا الإغريقية، حيث استطاع أن يخدع إله الموت ثاناتوس، مما أغضب كبير الآلهة زيوس، فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل القمة تدحرجت إلى الوادي، فيعود إلى رفعها إلى القمة، ويظل هكذا حتى الأبد.

يتذكّرني حيَّاني وتركني أدخل إلى البناية..

من الأفضل أن أصعد على السُلّم، هكذا فكّرت، البناية قديمة كما ذكرتُ سالفًا، لكنها من بعد الطابق الثاني يتغيّر مظهر طوابقها فجأة، يبدو أن الطوابق بداية من الطابق الثاني إلى ما فوق تمّ طلاؤها مؤخّرًا، الأمر الذي يُفسّر رائحة الطلاء التي لم ألحظْها في زياراتي السابقة، كانت تفوح رائحة الطلاء النفاذة وتملأ هواء البناية، في كلّ طابقٍ توجد سجادة حمراء ممتدَّة على طول الممرّ الطويل، أربع شقق في الطابق الواحد، جميع الشقق في جميع الطوابق تمّ استعمالها كمكاتب، ظللتُ أصعد حتى توقفت عند مدخل الطابق الخامس الذي كان غريبًا ولافتًا..

كان هذا هو الطابق الوحيد الذي تفصله عن السلم بوَّابة من المعدن المُزخرف والتي تم تزويدها بزجاج بنفسجيّ يحجب الرؤية، إضافة إلى إضاءة زرقاء مزعجة تختلف عن إضاءات الطوابق السُفلى، عندما اقتربت إلى بوابة الطابق الخامس تسرب إلى سمعي صوت موسيقى بعيدة، دخلتُ وصوت نبضاتي يكاد يعلو على صوت الموسيقى القادمة من هناك..

* * * *

(٢٥)

جميع أبواب الشقق كانت تدلّ على أنها خالية، ما عدا شقَّة واحدة، الشقة رقم ٢٠ إلى يسار المصعد، كان بابها من الخشب الفاخر، مع حليات من المعدن تتخذ أشكال ثعابين وأنصاف أجساد نساء عاريات وعناقيد عنب، كانت الساعة تجاوزت الحادية عشرة مساءً، وقفتُ أنظرُ حولي، لا توجد لافتة جوار باب تلك الشقة، إن كانت شقة سكنية أو مكتبًا فلماذا لا توجد لافتة جوار الباب، كما هو حال جميع الشقق الأخرى؟

خطرَ لي أن أصعد إلى الطابق التالي، توجّهتُ للبوابة التي سأخرج منها للسُلّم، وما إن خرجت منها حتى سمعت باب الشقَّة رقم ٢٠ يُفتح، لا داعي لوصف كيف ارتعدتُ حتى كِدتُ أُسقِطُ الأوراق التي كنت أحملها، استعدتُ اتّزاني سريعًا واحتضنت الأوراق في اللحظة التي بدأ صوتُ خطوات شخص ما يقترب باتجاه البوابة، صوت طرقات حذاء نسائيّ..

خفّفتُ سرعتي في الصعود، حتى خرجَت الفتاة الشقراء من البوابة، لمحتني ثمّ استمرّت في النزول بسرعة عاديَّة، خطر لي أن أسألها عن أيّ شيء..

- مساء الخير، من فضلك حضرتك ساكنة هنا؟ أنا بدوّر على مكتب أستاذ كريم الدياسطي..

نظرت لي نظرةً تخلو من أيّ ودّ أو حتى لطافة مصطنعة..

- في الدور التاني تقريبًا، مكتوب على باب الشقة..

وجدتُ إجابتها سببًا ممتازًا لكي أتبعها نزولًا، نزلتُ ببطء أتظاهر بأنني أُقلّب في الأوراق التي أحملها، اضطربت خطواتي للنزول فسقطت المفاتيح والهاتف صانِعَين جلبة، انحنيت لالتقطهما وأنا أنظر للشقراء التي نزلت قبلي، كانت اختفت عن نظري تمامًا، غير أنني وجدتُ صاحبتها تنزل وقد تجاوزتني سريعًا، كانت هي الفتاة التي اشتهتْ بها، اعتدلتُ سريعًا لألحق بها، ظهر وجهها حين انتهَت وصلة السلم وهي تواصل النزول..

- لا، مش ممكن.. مش هيَّ..

همستُ لنفسي وأنا أركض وراءَها، لمحَتْني فأسرعَت الخُطى..

لحقتُ بها وهي تسرع لتستقلّ سيارة صديقتها الشقراء التي تقف أمام المبنى، جذبتُها من ذراعِها، فأفلتَتْه من يدي ولم تلتفِتْ نحوي..

- إيه المجنونة دي!

علّقت الشقراء وكانت الفتاة الأخرى قد قفزت إلى داخل السيارة وأغلقت الباب متحاشيةً الالتفات إليّ ناظرةً إلى صاحبتها التي رمقتني باستغراب كبير وانطلَقَت وعجلات السيارة تصرخ على الأسفلت مخلّفةً عاصفة ترابيَّة أثارت حساسية عينيّ..

* * * *

(٢٦)

ظللتُ في مكاني أنظر إلى أضواء السيارة التي كانت تختفي في نهاية الطريق، عيناي تذرفان دموعًا من أثر الحساسية، وجسدي يقشعرّ هلَعًا، كان رجل الأمن ينظر إليّ متعجّبًا، فعدتُ إليه وأنا أتلفَّت من حولي..

- بعد إذنك.. هو دكتور ممدوح سيَّاف ليه مكتب هنا؟

- دكتور ممدوح؟. لا هو قفل مكتبه من سنة تقريبًا ونقل من هنا..

تنهّدتُ ناظرة إلى أعلى البناية ثمّ سألته ثانية..

- هو الدور الخامس مين ساكن فيه؟

- ماعرفش حضرتك.. حضرتك عاوزة إيه بالظبط؟

- مش عاوزة حاجة شكرًا كتّر خيرك..

رمقتهُ بنظرة كفيلة بأن تبلغه أنني فهمتُ أنه يحاول إخفاء شيء ما قبل أن أذهب وأستقلّ سيارتي وأنطلق دون وعي بالاتجاهات أو الزمن..

* * *

دخلتُ إلى غرفتي بعد فترة قيادة أكاد أجزم بأنني لم أكُن أرى الطريق خلالها، عدتُ بالحدس، كانت الاحتمالات والتساؤلات تصنع صورًا تتوالى

وتتعاقب في رأسي بلا أي ترتيب منطقيّ، كل شيء ممكن وكل شيء غير ممكن معًا..

خلعت ملابسي وتكوّمتُ تحت هطول ماء الصنبور الفاتر، كانت دماغي تبدو كقطعة معدنيَّة ملتهبة، خرجتُ بعد ذلك مباشرةً لأجلس في مكان خصمي، أمام اللعبة التي لم تنتهِ بعد..

ماذا لو افتدينا كلّ هذه الجنود برأس ملكٍ واحد وبأقلّ عدد من الخطوات والخسائر؟ هذا العالم القائم فوق هذه الرقعة التي لا تمثّل أي نسبة من مساحة الكون، أصبح كلّ أمره في يدي، يُمكنني تقرير اللعبة وتسييرها كما يحلو لي، كيف سأقرّر الموتَ بكامل الإصرار والترصّد، وعلى مَن؟

وجدتُني أنجرف لنوبة من الضحك الجنونيّ، بعد أن رتّبت جنود الجيشين، ووضعتُ جنديّين في مكان المِلكين، ثمّ التقطتُ المِلكين وصفعتُ رأسيهما ببعض ثمّ ناديت لصاحبي الذي هرول باتجاهي وألقيتُ المِلكين إليه، هذه فريستك الجديدة يا صديقي، التقطهما وبدأ في تكسيرهما بمنتهى الضراوة، وخلال ثوانٍ قليلة تدحرجت رأسا الفريستين لتستقرَّا على بُعدِ انقضاضة واحدة من صاحبي الذي ما زال يفترس الجسدين..

سيُتابع الجنود هذا المشهد الدامي، بعضهم سيتهلّل فرحًا للحرّية المفاجئة والبعض الآخر سيثور شفقة على الضحيّتين اللتين يجري لعاب صاحبي على وجهيهما، لا بدّ من الانقسام في صفوف أي حشد حتى وإن

كانت الضحيَّة طاغية، فإن أردتَ أن تُعاقبَ عبدًا لن تحتاج أكثر من أن تُعطيَهُ حرّيتَه!

* * *

نمتُ من فرط الإرهاق، واستيقظتُ في وقت متأخر إلى حدٍ ما، كان صباح الجمعة صباحًا عاديًّا بعادات لا تختلف كثيرًا عن عادات العطلات الأخرى، أطعمت صاحبي وأفطرت على قهوتي، تركتُ لحسن رسالة على هاتفه حتى يهاتفني متى يستطيع، وجلستُ قبالة قطعة النحت التي أحسست أنني سأعمل عليها كثيرًا اليوم، مرّت ساعات قضيتها بين النحت ولعب الكُرة مع صاحبي، حتى رنّ جرس باب البيت، كانت الشمس أوشكت على المغيب..

فتحتُ الباب، رحمة! لماذا في هذا اليوم؟

* * * *

(٢٧)

ظللتُ ممسكةً بباب الشقة مفتوحًا، أنظرُ إليها ولا أتحرّك للحظات..

- أدخل والاّ أمشي وآجي بعدين يا أبلا؟

تراجعتُ للوراء وأنا أستجمع ملامحي لأبتسم ابتسامة بالكاد تكوّنت على وجهي..

- لأ، اتفضلي، ادخلي يا رحمة.. ازّيك؟

- أنا بخير.. ازّيك إنتي يا أبلا وحشتيني..

- كنتي فين كلّ دا؟ حصل حاجة تاني والاّ إيه؟

لا يبدو عليها أي سوء هذه المرَّة، نفس الوجه الشاحب، جلباب بسيط كالعادة، رباط أسود في الرسغ الأيسر، وكلّ شيء يبدو على ما يرام..

- مفيش أصل سميرة حامل وتعبانة شوية، اتشغلت معاها بس.. حقك عليَّا..

- مبروك يا رحمة.. وانتي أخبارك إيه؟ لسة بتشتغلي في البلد؟

بدى عليها أنها تحاول ترتيب الكلام..

- آه ما انا جاية عشان أقولك خبر حلو.. أنا وحامد جينا قعدنا هنا عند أختي الكبيرة..

- فعلًا؟ كويس أوي.. اشتغلتي هنا؟

- آه، اشتغلت في مصنع بلاستيك.. بعيد شوية بس معلش.. أحسن برضُه من شغل الغيط..

- إنتي وحامد؟ وسميرة سايبينها لوحدها؟

- لا، ما هي حماتها وأخت جوزها معاها.. كلّه بيجري على أكل عيشه يا أبلا..

كنتُ أشعرُ أنني لا أبدو على طبيعتي، حتى سأَلَتني هي..

- إنتي كويسة يا أبلا؟ في حاجة مضايقاكي؟

- لا خالص.. شوية شدّ فالشغل.. صحيح يا رحمة.. إنتي بتنزلي وسط البلد؟

- تصدّقي يا أبلا عُمري ما نزلت وسط البلد دي ولا أي حتة جوَّا مصر قبل كدا.. بقول لحامد نبقى ننزل نشوف الدنيا بس إنتي عارفاه.. يحب يوقّف المراكب السايرة كدا على طول..

ظلّت تثرثر حول أحوال حامد الغريبة، وعن عملها في المصنع، كأنها تريد إثبات شيء ما، لم أُتابع حديثها جيدًا، كان شيئ واحد يسيطر عليّ هو أن أحاول تجميع الملامح وتبديلها، حتى أصابت أذني جملة خلال كلامها..

- بتقولي إيه يا رحمة؟ معلش سرحت شوية..

- بقول أنا مابدوّرش ورا حامد كتير، ساعات لو حاولنا نفهم ممكن نشوف حاجات تزعّلنا.. إنتي مش معاية بقى.. أنا هاقوم أروّح.. كنتي واحشاني بس قلت أعدّي عليكي أصل النهاردا إجازتي..

- لا، استنّي خليكي..

عادت للجلوس ثانية بعد أن كانت قد همّت للمغادرة، بدَأْت أتحدث معها عن أمور متفرّقة بعيدًا عمّا كان يشغل بالي، فبدأَت هي أيضًا تشعر بالراحة، تضاحكنا واستمرّ الحديث حتى المساء..

سألتني عن الورقة التي كنتُ قد رسمتُها فيها وهي تحتضن صاحب، فذهبتُ وأحضرتها، استعدنا تلك الذكرى وضحكنا كثيرًا..

- عارفة يا رحمة، ساعات بنحتاج نحكي.. حتى لو كانت حاجة مخبيينها عن كل الناس، بس أكيد بنحتاج نحكيها لحد.. المهم يكون في حد فحياتنا نقدر نحكيله واحنا مش خايفين.. صح يا رحمة؟

- صح يا أبلا.. بس ساعات بتبقى في حاجات من خوفنا على اللي بنحبهم، بنخاف نقولها لهم، ذنبهم إيه يتورطوا معانا.. ذنبك إيه إنتي تتهدلي معايا؟..

- وانتي مين قال لك إني هتهدل معاكي.. عقلين بيفكرو مش زي عقل واحد.. على الأقل نفكر مع بعض..

عند هذه النقطة، رأيتها تنظر إلي بعينين جامدتين، عميقتين، شفتاها ترتعشان رعشات خفيفة، تساقطت على جانبي وجنتيها دمعتان، دمعتان فقط، لكنهما كانتا تحملان ثقلًا كالثقل الذي تحمله على قلبها منذ زمن.. اقتربت إلى جوارها، وأمسكتُ يدها..

- أنا عارفة إنك مخبية حاجة عني، احكيلي.. أنا قلت لك قبل كدا إني عمري ما هضُرّك.. قولي يا رحمة.. مالك؟

استمجعَتْ صوتَها ومسحَتْ وجهها..

- مفيش.. مفيش حاجة.. نفسي أبعد عن حامد.. إنتي عارفة.. كان طالب مني حاجة كدا.. لما ما رضيتش أطاوعه، حبسني تلات أيام بعد ما ضربني زي كل مرة، حبسني من غير لا أكل ولا شرب.. لحد لما قلتله من ورا الباب إني موافقة عاللي هو عاوزه.. دا قدَر يا أبلا.. حامد قدري.. حاولت أهرب منه ماعرفتش.. إنتي كتر خيرك.. كفاية إني بتكلم معاكي.. بس عشان خاطري ماتتعبيش نفسك، ربنا هيرحمني منه في يوم من الأيام.. ماتورطيش نفسك يا أبلا زين، دي حاجات إنتي ماتعرفيهاش وماتقدريش عليها..

- كان عايز منك إيه يا رحمة؟

- مش مهم يا أبلا، أديني عملت اللي هو عاوزه وخلاص..

- كان عايز منك إيه؟ فهّميني.. إنتي بتعملي كدا ليه؟

- أنا مابعملش حاجة؟ بعمل إيه يعني؟ وبعدين حامد غلبان برضه، بيجري على أكل عيشه وخايف على نفسه وعليَّا.. يا أبلا مفيش حاجة صدقيني.. أنا اتعوّدت واهي الدنيا ماشية..

ظلت متمسكة بموقفها لا تريد مصارحتي بما يفعله حامد وبما يجبرها عليه، هناك جزء في قلبي كان متأكدًا تمامًا من أنها هي الفتاة التي أراها عند بناية كريم الدياسطي، وجزء آخر ينكر تلك الفكرة، كيف لها أن تتلون بهذه الطريقة، ما تقوله ربما يكون متعلقًا بإهانة حامد لها وإجباره لها على العمل حتى يسطو على أموالها لا أكثر، لم أستطع العثور في

كلامها على خيط واضح يقودني إلى حل منطقيّ لكل هذه التساؤلات التي باتت تمزق عقلي بشكل مستمرّ..

* * *

رحلت رحمة مرَّةً أخرى حاملةً معها لغزها وجميع الحلول التي يُمكن أن تُخفّف عنّي كل هذا الشقاء الذي يتلبّسني دون وعي ولا إرادة. رحلَتْ بعد أن أخبرتني أنها عائدة إلى شقة أختها الكبرى التي تقع في شارع ليس ببعيد عن منزلي، وأنها ستأتي كلّ فترة لزيارتي، تركتها ترحل، ودخلت لالتقاط هاتفي ومحادثة حسن ليأتي لمقابلتي كالمعتاد..

* * * *

(٢٨)

ما زال هنالك بعض الوقت، لذلك فكّرتُ في اصطحاب صاحبي لنزهة سريعة حول البيت، أخذت الكُرة ونزلنا معًا إلى الشارع، كان عمّ مصباح حارس البيت يجلس على كرسيّه الخشبيّ في حديقة المنزل الخارجية، وقد بدا عليه التأهّب والانتظار..

- مساء الفل يا عمّ مصباح..

- مساء النور يا أبلا زين..

أجابني وهو لا يزال يتلفّت من حوله مراقبًا الطريق..

- خير يا عمّ مصباح شكلك مستني حد والاّ بتدور على حد.. في حاجة حصلت والاّ إيه؟

- متقلقيش يا أستاذة، أنا مش هغفّل الليلادي الاَّ أمّا أجيبه..

- هو مين بس؟

- في واد بييجي بقالو كام يوم يُقف عالناصية هنا بعربية ربع نقل، ما بيعملش حاجة ولا حد بيجيله، يفضل واقف بالعربية بالساعة والساعتين ويقوم ماشي، شكله حرامي.. بس وحياة النبي هجيبه واجيب اللي خلفوه..

- صلِّ عالنبي بس واهدا يا عمّ مصباح.. إنت بالراحة كدا لو رجع تاني افهم منه إيه حكايته وخلاص، هو هيقلق ومش هيرجع تاني لما يلاقيك واخد بالك منه..

- على الله يا أبلا.. كله على الله..

تركتُ عمّ مصباح منهمكًا في المراقبة، بعد أن سألته إذا ما كان هناك أحد في الجوار يحرق مهملات أو شيء من ذلك القبيل، فقال إنه لم يلحظ ذلك، فأخبرته بأنني أشمّ رائحة حريق باستمرار في شقتي، وأنه لا بدّ أن هناك شيئًا ما يحترق بالقرب من البيت.. وعدني بأنه سيحاول البحث ليعرف من أين تأتي تلك الرائحة وسيخبرني على الفور، ثمّ انطلقنا أنا وصديقي لنزهتنا..

بعد ساعة من المشي برفقة صاحبي الذي كان ممتنًا لي بشدَّة على هذه النزهة التي طال انتظارها، عدنا إلى المنزل، تركته بعد ذلك وذهبت لملاقاة حسن، أخبرتهُ بما حدث في الليلة التي صعدتُ فيها إلى بناية كريم الدياسطي، وما رأيته هناك، في البداية استاءَ لأنني لم أنتظر أن نفكّر معًا، كما كنا اتفقنا، ثمّ بدأ يفكّر جديًا في التفاصيل التي ذكرتها له، بعد أن تركتُ له الفرصة لكي يحاول تصور ما رويته، أكملت له ما جرى من مقابلة الفتاة التي ما زلت أشتبه بها، وصولًا بعد ذلك إلى زيارة رحمة غير المتوقعة والحوار الذي دار بيننا، لم أُغفل شيئًا، ذكرت له كلّ ما حدث وحتى ما يدور بخاطري من احتمالات وتساؤلات. كان ردّ فعله كما توقعت تمامًا، بعد الاعتراض على أنني ذهبتُ دون انتظار المناقشة التي كنا اتفقنا عليها من قبل، أبدى تعجبه من احتمال أن تكون الفتاة التي رأيتها واشتبهت بها هي رحمة، فكيف لرحمة الفتاة الفقيرة المقهورة التي

شاركتني مسكني واقتربت مني إلى هذه الدرجة من الوضوح والانكشاف أن تكون هي تلك الفتاة المُتأنّقة ذات المظهر اللافت والمشكوك في طبيعة سلوكها في آنٍ واحدٍ؟ أضاف أخيرًا، أنه سواء كانت هي أو لم تكُن، فهو يرى أنه لا داعي إذن من البحث والتحرّي وراء الأمر، وأن أفضل الحلول هو أن أنقطع عن رؤية رحمة تمامًا، وأن أعود إلى ممارسة حياتي بشكل طبيعي..

- إنت بتتكلم جد؟

سألته بعد أن أعطيته الفرصة كاملة في مراجعة الأفكار والتعليق على كل شيء..

- يعني إيه بتكلّم جد؟ طبعًا بتكلّم جد.. أعتقد أنك عملتي اللي عليكي وزيادة معاها، هي مش طفلة مقهورة هتتبنيها وتنقذي مستقبلها، دي مستقبلها اتحدد خلاص، سواء كانت هي البنت اللي إنتي شفتيها في العمارة أو مكانتش هي..

- دا رأيك.. عمومًا أنا مش بحاول أغير أفكارك، بس أنا مش موافقة على ولا حاجة من اللي إنت قلته.. أنا متأكدة إنها هي، ومُصرَّة إني أعرف إيه اللي بيحصل..

وكعادة المصائب التي تسقطُ على رأس الواحد فينا هكذا وبلا أيّ مقدّمات، قطعَت الحوار إيمان عزمي التي لم أرَها ضمن روَّاد هذا المقهى من قبل، رأتني أنا وحسن فاقتربت لتلقي التحية، وما إن دعوناها لمشاركتنا الطاولة حتى سحبت كُرسيًا وسارعت بتلبية الدعوة.

لم نستطع استكمال حوارنا أنا وحسن، وانخرطنا في حوار جديد مع إيمان، أمور كثيرة ومتفرعة حول الزملاء والمعارض وحول عرض مسرحية حسن الأخيرة التي لم تتمكن إيمان من حضورها و.. و.. إلخ. لم تكُن صدفة أن تزور إيمان المقهى هذه الليلة، فقد أخبرني حسن بعد ذهابها أنها هاتفته لتبارك له نجاح عرض المسرحية، وسألته عني، فأخبرها أننا سنلتقي هنا هذا المساء، جاءت لتخبرني بأنّ ممدوح سياف يريدني أن أمرّ عليه في مكتبه في الكليَّة صباح الاثنين من الأسبوع المقبل، وأن أُحضِر معي أفضل منحوتة جاهزة عندي، سارعتُ بسؤالها عن عنوان مكتبه الخاص خارج الكلية بحُجة أنني أُفضّل الذهاب إلى مكتبه الخاص على مقابلته في الكلية صباحًا بسبب ظروف العمل، لكنها قالت إنها لا تعرف العنوان. غادرت إيمان، وعاد حسن لمحاولة إقناعي بالعدول عما أفكّر به مرَّة أخرى..

* * * *

(٢٩)

حاولتُ لمدَّة ليلتين متتاليتين أن أطرد فكرة رحمة عن رأسي تمامًا، بعد أن فكّرت في كلام حسن، بالتأكيد لو كان باستطاعتي أن أفعل ذلك لفعلت، على الأقل كنت سأنام بشكل أفضل، غير أن محاولاتي جميعها باءت بالفشل..

كنتُ أذهب إلى تلك البناية، أصفّ سيارتي على الرصيف المقابل وأنتظر ظهور مجموعة الفتيات والفتية، قمتُ بتلك الرحلة مرّتين خلال أسبوع واحد، لكنني رأيتُ شبيهة رحمة مرَّة واحدة، وكانت تسرع لدخول البناية، يبدو أن رفاقها استاؤوا من عدم رغبتها في مشاركتهم وقفتهم المرِحة فكانوا يطوّحون أيديهم في الهواء وهي تردّ عليهم بمثل ما فعلوا، رأَتني الشقراء في المرتين، وبدا عليها أنها أخبرت أحد الفتية عن أمري، ذلك الأصلع الذي تنبت جوار أنفه من ناحية خدّه الأيسر شامة ظاهرة، نظرَ نحو سيارتي ثمّ رمقني بنظرة مخيفة حاولتُ تفاديها متظاهرة أنني أجيب عن مكالمة هاتفية وانطلقت تاركة لهم الشارع والبناية والمنطقة بأكملها.

لم أذهب في المساء التالي، واكتفيت بنزهة طويلة مع صاحبي في حديقة عامة قُرب البيت نقصدُها عادة أنا وهو في نزهاتنا المتكرّرة، وفي طريقنا للعودة، استقبلتُ مكالمة من رقم غريب، لا أدري لماذا أجبت عنها، ليس

من عاداتي أن أُجيب عن مكالمات الأرقام المجهولة، كان المتصل ذكرًا له صوت خشن، ويبدو أنه يتحدث من مكان مغلق:

- ألو..

- ماجيتيش ليه؟ القعدة في العربية اتكشفت مش كدا؟

- إنتَ مين؟

- لو شفتك هناك تاني هزعّلِك.. مالكيش دعوة بيها وماتمشيش وراها.. تمسحيها من دماغك خالص.. إنتي سامعة؟

انقطع الاتصال..

دخلنا إلى المنزل أنا وصاحبي وصوت الرجل يرنّ في أذني، لا شكّ أنني خِفت، لكنني كنت قد عزمتُ أمري أنني سأذهب مرَّة أخرى.. مرَّة أخيرة.. وسوف أرى كلّ شيء..

لم يتمكّن حسن من مقابلتي تلك الليلة بسبب ظرف طارىء، تأجّل اللقاء إلى مساء اليوم التالي، لم أنمْ ثانية واحدة، ظللتُ أكلّم صاحبي الذي شاركني السهر والقلق، أتنقّلُ ما بين النافذة وقطعة النحت طوال الليل، ثمّ غلبني النعاس في منتصف النهار بعد أن قرّرت التغيّب عن العمل في ذلك اليوم، استيقظتُ بعد الغروب، ذلك الوقت المزعج، الوقت الرماديّ الذي لا يبعث في داخلي إلّا الرغبة في البكاء المكتوم. قرّرت النزول مبكّرًا قبل موعد لقائي بحسَن بساعتين والقيادة الهادئة على غير العادة، وما إن فتحت دولاب ملابسي، حتى فهمَ صاحبي ما أنتوي فعله..

رمقَني بنظرةٍ متوسّلة يُعلنُ بها لي عن رغبته في مصاحبتي في نزهة جديدة..

- مش النهاردا يا صاحبي.. معلش بقى ماتزعلش.. والّا أقول لك، أنا هنزّلك تلعب في الجنينة لحد ما ارجع، خلّيك مؤدب وماتطلعش في الشارع..

(كلّمتهُ وقد جلست على ركبتيّ مداعبةً عنُقَه).

نزلنا سويًّا أنا وصاحبي، تركته في الحديقة الداخليَّة للمنزل، هذه المرَّة لم يكُن صاحبي على ما يُرام، كان يتقدّم نحوي ويتأخّر، يذهب ناحية بوَّابة الخروج ويحاول أن يمنعني من الذهاب، هناك خطب ما أصاب صاحبي في تلك الليلة، لكنني كنت في حاجة لرؤية حسن.. قذفتُ الكُرة لينشغل بها ويتركني أذهب، لكنها تدحرجَت إلى أن وصلت إلى جوار قائمته الخلفية فلم يُعِرْها أي انتباه، كان ينظرُ لي ويُصدر صوت ندائه المبحوح، حاولتُ تهدئته بالمسح على ظهره وبعض الوعود بأن أعود سريعًا، ثمّ أدرتُ ظهري متجاوزة عينيه اللائمتين وخرجت، مررتُ بعمّ مصباح قبل أن أستقلّ سيارتي لأطلب منه أن يُبقي نظره على صاحبي وألا يترك بوابة الحديقة مفتوحة..

* * *

وأخيرًا، اقتنع حسن أنني سأفعل ما أريد، وأنني لا أريد منه أكثر من ألَّا يتركني وحدي هذه المرَّة..

- تعالَى معايا بس.. كلّ اللي أنا عايزاه منك إنك تيجي معايا وتستناني في العربية..

- هاجي معاكي يا زين، هعمل إيه بس؟ مجنونة ولازم أطاوعك بدل ما تودي نفسك في داهية.. بس قوليلي ناوية على إيه بالظبط، وإيه الهدوم الغريبة اللي إنتي لابساها دي؟ باين أوي من اللي حكيتيه إن مستحيل

نقدر ندخل الشقة دي، وواضح كمان إن مفيش طريقة نقدر نشوف بيها اللي بيحصل جواها..

- خلينا نروح بس، وأنا متأكدة إن هيبقى في طريقة..

خرجنا من المقهى لتمشية سريعة في وسط البلد، حتى اقترب الوقت على الإشارة لمنتصف الليل، ذهبنا بسيارة حسن، كنتُ ارتديت فستانًا قصيرًا على غير عادتي، هذا هو الفستان الوحيد الذي أمتلكه تقريبًا، اشتريته منذ أكثر من عامين لحضور خطبة أخت أمينة، ارتديته هذه الليلة وأطلقت سراح شعري وأضفتُ بعض المساحيق لوجهي حتى يكتمل المظهر الذي أعتقد أنه لن يكشف بسهولة عني، صففنا السيارة على بعد بنايتين بعد أن رأينا شبيهة رحمة تصعد إلى البناية، ويتبعها الباقون، تأخّرت الشقراء عن رفاقها قليلًا، رأيناها تترجّل عن سيَّارتها وترتّب مظهرها فبدأنا أنا وحسن في التحرك..

كانت الشقراء قد توقّفت قليلًا لتتحدث إلى رجل الأمن الذي تسلّم منها مفاتيح السيارة، فسبقناها ودخلنا إلى البناية بعد أن أخبرنا رجل الأمن الآخر بأننا صاعِدان لزيارة صديقنا المحامي في الدور الثاني، فسمح لنا بالصعود..

استعملنا المصعد الذي توقّفنا به في الطابق الرابع، ثم بدأنا في الصعود ببطء نحو الطابق الخامس حتى رأيناها تقترب، فسارعتُ لملاقاتها..

- بعد إذنك..

ناديتُ عليها، فالتفتت لي يبدو أنها لم تتعرفني بسهولة، ظهرَ حسن إلى جوارها فأصبحنا على يمينها وشمالها، بدأت في الحديث وأنا أُخرج من

حقيبتي الصغيرة مبلغًا من المال، تقريبًا نصف راتبي الشهري أو يزيد قليلًا، نظرَت إليه، وبدأت تتحرك معنا نزولًا إلى الطابق الرابع، ما أكّد لي أنها على استعداد للحديث..

- اسمعي، إحنا مش عايزين منك حاجة، كل الحكاية إني باكتب مسرحية والأستاذ مخرج، وعايزين نشوف إيه اللي بيحصل هنا، أكيد مش هتقوليلي إن مفيش حاجة بتحصل..

(وبدأتُ في إعادة الأوراق النقدية إلى الحقيبة..).

- لأ.. أفهم بس.. أساعدك ازّاي؟

(سارعَت بالإجابة وهي ترتب شعرها، وقد بدا عليها أنها تعرّفتني أخيرًا).

- ولا حاجة.. دخّليني معاكي بس..

نظرَ إليّ حسن الذي لم يتوقّع أن تكون هذه هي خطتي..

- أدخّلك ازّاي، إنتي مش فاهمة حاجة، المكان جوَّا ماينفعش خالص.. كلّ الناس هنا عارفين بعض، ماينفعش صدقيني..

- أنا متأكدة إنك هتعرفي تتصرفي..

(عقّبتُ على كلامها وأنا أُخرج ورقتين نقديتين إضافيّتين زادت بها قيمة المبلغ إلى حد كان كافيًا لأن تفكّر الشقراء في طريقة أخرى..).

- طيّب.. مع إني مش عارفة إيه دخل المسرحية والاخراج باللي بيحصل هنا، بس ماشي، أنا معايا مفتاح الشقة اللي قصاد الشقة دي، هدخّلك فيها، هي ليها باب بيوصل للشقة التانية، هتفتحيه وتشوفي منه، بس لو حاجة حصلت أنا ماعرفكيش.. وهقول إن مفتاحي ضاع مني، وإنك

بتيجي تراقبي المكان بقالك فترة واتهمك بأنك سرقيته، وبيتهيألي هيكون في شهود على كلامي..

- لا، دانتي مركّزة أوي..

عقّب حسن على كلامها.. فأكملتُ أنا..

- ماتقلقيش، إحنا مش هناخد أكتر من عشر دقايق، بس قوليلي هي دي شقة مين؟

نظرَت إليّ وقد جعلها السؤال تضطرب قليلًا، قبل أن تُجيب بسؤال آخر:

- بتسألي ليه؟

- عادي.. أنا عارفة إن كان في حدّ عنده شقة هنا اسمه ممدوح سياف، تسمعي عنه؟

- ماعرفش.. خلّيكو هنا لحد ما أطلع أشوف الدنيا فيها إيه وارجع..

صعدَت، وتركَتنا أنا وحسن ننتظرها في الطابق الرابع، عادت بعد نحو عشر دقائق، صعَدنا وراءها، كان باب الشقَّة رقم ٢٠ مغلقًا، من السهل توقع أن الشقة المقابلة أيضًا يمتلكها مالك الشقة التي نريد رؤية ما يحدث فيها، لكنني قرّرت أن أتوقف عن طرح الأسئلة قليلًا تجنّبًا لإلغاء الخطة برمّتها..

دخلنا إلى الشقة المقابلة كما قالت لنا، شقة عادية مؤثّثة بأثاث فاخر، صالة استقبال واسعة. تحمّلت صالونين كبيرين وثلاثة أركان يتكون كلّ واحد منها من ثلاث إلى أربع قطع، مرآة كبيرة بإطار من المعدن المُفرّغ تغطّي الجدار المقابل لباب الخروج بالكامل، وحدات إضاءة كلاسيكية

فخمة، تتناثر حول قطع الأثاث وعلى بعض الطاولات تماثيل كبيرة ومتوسّطة لنساء وذكور جميعهم عُراة، تمثال آخر مزيّف للتمثال الأصلي للنبيّ داوود والذي نفّذه النحات الشهير مايكل آنجلو منذ مئات السنين، عدد من الحيوانات الخزفية، بينها تمثالان لأسدين كبيرين وأفعى وحصان ضخم، وعلى الجدران تم تعليق لوحات لرسوم كلاسيكيَّة، بعضها كبيرة وبعضها متوسطة الحجم. إلى اليسار يقع رواق طويل، به ثلاث غرف مغلقة، أدخلتنا إلى الغرفة الوسطى، يوجد في الحائط المواجه لباب الغرفة باب آخر، قالت إن هذا هو الباب الذي ستفتحه لنا وتتركنا وتذهب، وإنه لن ينبغي علينا أن ننتظر طويلًا، لأنها ستعود بعد أقل من ساعة لإخراجنا من هنا.. أعطيتها المبلغ المالي الذي وعدتُها به ثمنًا لمساعدتها بعد أن تعهّدتُ لها للمرة الألف أنني لن آتي على ذكرها مُطلقًا، همّت بالذهاب، فلحقتُ بها وقد باغتني سؤال لم أستطع التحفّظ عليه..

- هيّ البنت اللي معاكي اللي شعرها اسود اسمها إيه؟

نظرَت إليّ نظرة حادَّة فيها من الإنذار والتحذير الكثير قائلة:

- إنتي عايزة إيه بالظبط؟ الموضوع كدا لا شكله مسرح ولا فيلم، ولا يحزنون.. بقولك إيه، خدي فلوسك وامشي.. أنا غيّرت رأيي..

- خلاص خلاص.. أنا بس حسيت إني أعرفها..

حدّقَت إليَّ ثانيةً بنفس الطريقة، ثمّ استدارت وذهبت، أغلقَت باب الشقة، وتركَتني أنا وحسن يتصاعد القلق والخوف من صدرينا قبل أن يذهب حسن ليفتح الباب الذي سنرى منه ما جئنا من أجلِه..

* * * *

(٣٠)

كان الباب يُفضي إلى مربّعٍ صغير، بابه أكبر من حجم الباب الطبيعي، كأنه جدار ناقص، ينفتح على غرفة كبيرة، جدارها المقابل من الزجاج العاكس، الحوائط المغلّفة بالقطيفة الحمراء والمرايا الكبيرة ذات الإطارات المذهّبة تُضفي على المكان شيئًا من الغموض.. بدأت الموسيقى في الخروج من سماعات السقف، ثمّ تغيّرت الإضاءة.. ضوء أصفر يتساقط بنعومة من مصابيح معلّقة على الحائط، يختلط الضوء الأصفر بإضاءة زرقاء تنساب من مصابيح دقيقة في السقف، دخلَت إلى المنتصف فتاتان إحداهما النحيفة ذات الشعر القصير الأحمر، والأخرى لها شعر برتقاليّ مجعّد، عاريتان، إلا من بعض الريش المتناثر فوق بشرتهما بطريقة مثيرة، تتمايلان وترقصان بشكل عشوائيّ مجنون على نغمات الموسيقى المُقبِضة، تبدآن بعد ذلك في خلع الريش ببطء، ناظرتين إلى بعضهما في مواجهة الزجاج العاكس، يلحق بهما شابان، أحدهما الأصلع ذو الشامة البارزة جوار أنفه، والثاني له شعر داكن طويل نسبيًّا، يرتديان أربطة جلدية حول رسغيهما، ويلفَّان قطعًا من جلد الحيوانات حول خصريهما، يخلعانه فور وصولهما للفتاتين الراقصتين، يبدأ الاشتعال البطيء، يرتفع الدُّخَان، تتراقص الأضواء، ثمّ يخرج الجميع ببطء عن المشهد..

بضع ثوانٍ، ثمّ تدخل الخمريَّة ذات الشعر الفحميّ.. تتغيّر الموسيقى، موسيقى فرنسيَّة تمّ دمجها بروح إفريقية، يتمايل الجسد الخمريّ، تبدأ بصبّ بعض الزيت على جسدها العاري، ينساب الزيت على البشرة الخمرية، تستمرّ في التحرّك حسب ما تتطلّبه الموسيقى، تشتدّ اللمعة، يتهادى الشعر الفحميّ حول الجسد المنحوت بدقة، تدور حول نفسها وتسبح الذراعان حولها، تتهدّج أنفاس حسَن، أنظر إليه وقد تفرّقَت مشاعري بين الخوف والصدمة والتعجب - الآن عرفتُها، أُحدّث نفسي - يدخل الشابان ثانية، وتدخل معهما الشقراء، تتقافز مرحًا، تصطك حول كاحليها خلاخيل من الريش والمعدن، تقترب إليها، تسحب الجسد الخمريّ وتمدّده ببطءٍ على الأرض، يستلقي الشابان على بطنيهما جوار الفتاة المُمدّدة أرضًا، تركع الشقراء على ركبتيها وكفّيها، ترتفع الموسيقى، تتسرّب أصوات وضحكات من الخارج، يشتبك الثلاثة فوق الفريسة الخمريَّة، يحترق الهواء بالأنفاس وتتراقص الأضواء..

ينسحبُ الجميع زحفًا إلى خارج المشهد، وتُطفأ الأنوار..

* * * *

(٣١)

التفتُّ أنظر إلى حسن، كان يتصبّب عرقًا كأن غيمةً ثقيلةً ألقَت بحمولتها كاملةً على رأسه، يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة ويحاول استجماع وعيه، خَطَوتُ بعيدًا عنه قليلًا وبدأت في ترتيب شعري ومسح وجهي، تظاهرت بالتفتيش في حقيبتي عن شيء ما، حتى أعطيه فرصة ليستعيد نفسه..

- يالَّا نمشي..

سمعتُه يُحدّثني ذاهبًا باتجاه باب الغرفة..

تبعتُهُ دون أن أنطق بكلمة واحدة، وقفنا وراء باب الشقة المغلق نستمع من خلفه لنتأكد من أن الطريق آمن، فتحناه ببطء، ثم انطلقنا والخوف يكاد يقتلنا من ملاقاة أحد المشاركين في العرض الجنونيّ..

كان الصمتُ يرافقنا طيلةَ الطريق عودة إلى سيارتي التي تركتها في جراج في وسط البلد، نزلتُ من سيارتِه، ثمّ نظرت إليه..

- كلّمني لمّا تروّح..

كان يبدو عليه الإنهاك والتوتّر، ابتسمتُ له وأنا أكمل كلامي..

- إيه يا عمّ في إيه؟ إنت هتقلقني عليك ليه بقى؟

تحشرج صوته قليلًا، ثم ابتسم لي قائلًا..

- لا أنا تمام.. خدي بالك من نفسك يا زين.. أظن خلاص كدا.. هكلّمك عمومًا لمّا أوصل البيت..

- ماشي.. مستنيَّة تليفونك..

قدتُ سيارتي وكلّ المشاهد تتقاطع أمام عينيّ، رنّ جرس الهاتف مشيرًا إلى وصول رسالة قصيرة، لم أفتَحْها، كنتُ أفكّر فيما يجب عليّ أن أفعله، اقتربتُ من الشارع الذي أسكن فيه، كان قد تجمّع بعض الناس على رأس الشارع، شجارٌ صاخب وسباب يتصاعد، لمحتُ عمّ مصباح على أطراف المجتمعين حول الشِجار، لكنني لم أتمكن من التوقف لمناداته وسؤاله عما يحدث، أكملت الطريق إلى البيت، صففتُ السيارة، وتذكّرتُ أنني تركتُ صاحبي في حديقة المنزل برفقة عمّ مصباح، دخلتُ من بوابة البناية أبحث عنه، أصفِرُ له وأنادي عليه، لم يأتِ صاحبي لملاقاتي..

صعدتُ إلى الشقة، ظننتُ أنني ربما أجده نائمًا أمام الباب، وهذا ما حدث بالفعل، وجدتهُ بالفعل نائمًا..

نائمًا إلى الأبد..

ممدّدًا، عيناه نصف مغمضة، وعنقه الذهبيّ لم يعُد ذهبيًا..

انزلقَت قدماي في بقعة الدم الواسعة، وسقطتُ إلى جوار صاحبي الذبيح..

* * * *

(٣٢)

مرّ أسبوع على دخول ذلك العالم الشيطانيّ، عالم رحمة ومن معها، مرّ أسبوع على رحيل صاحبي، مرّ أسبوع وأنا أتعثّر في عالمي وحدي..

بعد أن حملتُ صاحبي إلى بيته الأبديّ، بعد النحيب والصراخ والانكسار، مرّت ليلة وصباح، استيقظت بعدهما متورّمة العينين حاقدة على نفسي التي لم تلحق بصاحبها، حاولتُ أن أحتضن نفسي وأواسيها، لم يكُن في وسعي الوصول إلى نفسي أصلًا، كانت تائهة بعيدة عني، كلّ ما حدث كان يعوقني عن الوصول إليّ، كيف يُمكنك النظر إلى المرآة والتحديق في عينيك حين تكون ناقمًا على نفسك؟

...

في المساء التالي، فحصت هاتفي بطريقة ميكانيكية غير واعية تمامًا، كانت الرسالة القصيرة لم تُفتحْ بعد، "الله يرحمه كان ذكي.. خدي بالك من نفسك بقى واسمعي الكلام".

تهديد آخر؟ لا بأس، ماذا سيحدث أكثر مما حدث؟ أنا الآن لا أبحث فقط عن حلّ للغز أو كشف عن شخص اشتبهتُ به، أنا الآن مطعونة حتى آخر نقطة في القلب ولي ثأر سآخذه عاجلًا أو آجلًا..

فتّشتُ حقيبتي حتى وجدتُ آخر لفافة تبغ، أشعلتُها وانتظرتُ حتى تتخذ أفكاري مقاعدها وتهدأ العواصف التي تضرب دماغي من كلّ جانب،

بدأت الصور في التشكّل أمام عيني، لا بدّ من أنّ القاتل كان هو الشخص الذي يأتي لمراقبة البيت وأثار وجوده المتكرر انتباه عمّ مصباح. راقبَني عندما ذهبتُ ليلتها، ثمّ حضر وأثار شجارًا بواسطة أتباع له عند ناصية الشارع حتى يجذب انتباه عمّ مصباح ليذهب لاستطلاع الأمر، ثمّ نفّذ ما جاء من أجله، ذبحَ صاحبي أمام بابي. لم تكُن هناك آثار لنزيف على السلم ولا في المصعد، لا بدّ أنه اصطحب صاحب حتى باب الشقة ثمّ ذبحه. ثمّ بعد أن ترك الجثة أمام الباب، رحل وأرسل إليَّ رسالته القصيرة التي تضمنّت التهديد الثاني..

ظللت سجينة منزلي بكامل إرادتي لمدَّة أسبوع، أغلقت هاتفي، وكنتُ أستيقظ ساعات معدودات من إغماءات متتالية، كنت فتاة الكهف الذي لن يُخطئَ أحد في عدّ أصحابه، سيقولون واحدة وستبقى واحدة، مذبوحة على قيد الحياة وقد رحل عنها صاحبها الوحيد..

كانت أوّل مكالمة أقوم بها بلا شكّ لحسن، أخبرته بما جرى، وطلبت منه ملاقاتي سريعًا..

بعدَ أن تقبّلت منه جملة من عبارات التعزية والمواساة التي لا تفعل إلا أن تثير حقدي ورغبتي في الدم أكثر، سألني:

- مين اللي عمل كدا يا زين؟ تفتكري حد من طرف صاحب الشقة؟

- أكيد طبعًا، وعمومًا أنا شاكة فِالحيوان أخو رحمة..

- حامد.. احتمال وارد برضه، هتعملي إيه طيب؟

- مش عارفة بالظبط، بس أكيد هيجيله وقت قريب.. بقولك إيه يا حسن.. فاكر كمال المنسي؟

- آه، طبعًا فاكره، لسه كان بيكلمني من يومين كدا.. ليه؟

- حلو أوي.. هو كان بيشتغل في جريدة مستقلة مش كدا؟

- رئيس تحرير جريدة "الواقع".. عايزة تعملي إيه؟

- ماعرفش لسه، بس أعتقد هنحتاجه الفترة اللي جاية..

- فهّميني..

أخبرته بأنني سأحتاج إلى مساعدة كمال، لكنني لم أُحدد بعد شكل الطلب الذي سأطلبه منه، أصبحت على يقين أنها رحمة، وبعد أن تأكدنا من أنّ ما رأيناه كان شيئًا غير طبيعيّ وتحوم حوله مئات علامات التعجب والاستفهام، وأن صاحبي كان ضحيَّة لمالك الشقة حتى وإن لم يكن هو الفاعل. أخبرتُ حسن بأمر المكالمة التي تلقيتها من الشخص الذي أرسل الرسالة القصيرة بعدَ أن كنتُ قد أخفيت عنه أمر الاتصال حتى يوافق على الذهاب معي لاكتشاف ما يجري في داخل تلك الشقة المُريبة، وأنني أعتقد أن صاحب الاتصال والرسالة سيكون بكل تأكيد هو القاتل، لكنني سأحتاج بعض الوقت لتقرير ما هي خطوتي التالية..

سأشرح لكمال المنسي ما رأيناه أنا وحسن، وأحرضه على نشر عدة مقالات لفضح مالك الشقة والمشاركين في تلك الليالي الشيطانية، وإجبار الأجهزة المعنية بمراقبته والتحرّي عنه، كان هذا كلّ ما فكّرتُ فيه وبدأت في تنفيذه بالفعل عندما هاتفت كمال في اليوم التالي للقائي بحسن وأطلعته على مختصر الموضوع، غير أن كلّ شيء قد تغيّر حين عدتُ من العمل بعد ذلك بيومين ووجدتُ رحمة في انتظاري..

* * * *

(٣٣)

هذه المرَّة لم تكُن رحمة ترتدي جلبابها البسيط، ولا كانت تعقد شعرها وتغطيه بقطعة من القماش، كانت ترتدي بنطلونًا وسترة نسائية فاخرة، شعرها الفحميّ ينساب على ظهرها، وتلبس حذاءً مثيرًا، وتحمل حقيبة جلدية أنيقة..

كانت تجلس على السلّم المقابل لباب شقتي، وقفَت عندما رأتني، لا أدري بماذا شعرتُ تحديدًا عندما وقع نظري عليها، هل كان ينبغي أن أشعر بالندم أم باللامبالاة؟ بالحقد عليها بعد أن غدرت بي وخانتني أم بالحزن لأنّ رؤيتي هي التي خانتني؟ لا أدري تمامًا، لكنني ألقيتُ عليها نظرة واستدَرت كأنّني لم أرَ أحدًا، فتحتُ الباب ودخلتُ إلى الشقَّة، كنتُ سأهمّ بإغلاق الباب، لا أريد أن أراها ولا حتى أن أبصق على وجهها، هي لا تستحقّ النظرة على أي حال، لكنّها سارعَت في دفع الباب متوسّلة أن أعطيها فرصة واحدة وأخيرة، نظرت إليها، وكان الكلام يكاد يخرج من بين شفتيّ لأطردها عني إلى الأبد، لكنني لم أفعلْ، كم مرَّة في حياة المرء يوشك على اتخاذ القرار وعند اللحظة الأخيرة يتراجع عنه؟ كم مرَّة يضحكُ علينا الحظُّ وينظرُ إلينا ببسمته الماكرة كأنّه يقول لنا كم أنتم ساذجون وحمقى!

كان ينبغي عليّ أن أطردها، أن أعود إلى حياتي وأجمع فُتاتَ نفسي الذي تناثر حول قبر صاحبي الذي راح ضحيَّة من غير ذنب لهذه الصدفة التي ألقى بها القدر في طريقي، لكنني رأيت مساحيق التجميل التي كانت تضعها على وجهها قد سالت من أثر البكاء، عيناها التهبتا وتورّمتا بشدة، خدّها الأيسر عند الفكّ يحمل أثر صفعة قويَّة أسفرَت عن ورمٍ وكدمة زرقاء..

أدخلتُها وأغلقت الباب، جلسَت وهي تبكي وتنتحب، وما إن جلستُ قبالتها، حتى ركعَت عند قدميّ وبدأت في تقبيل يديّ، لكنني سحبتُ يديّ سريعًا..

- بقولك إيه.. بطلي الحركات دي.. أنا قرفانة منك.. إنتي مقرفة أوي.. عايزة مني إيه تاني؟

- اسمعيني بس.. أنا هقول لك كل حاجة.. أنا عارفة إنك عرفتي خلاص، وعارفة إنك مش عايزة تبصّي في وشّي.. بس اسمعيني يا أبلا.. اسمعيني الله يخليكي..

صمتُّ، ونفختُ غيظي:

- عايزة تقولي إيه يا رحمة؟ والاّ يمكن مايكونش اسمك رحمة أصلًا..

- لا يا أبلا أنا اسمي رحمة، أنا ما كدبتش عليكي، أنا خفت أقول لك، كان نفسي أقولك لك كل حاجة، بس خفت.. حامد عرف طريق بيتك وضربني زي ما إنتي شايفة وهددني لو جيتلك هيولّع فيَّا.. يا أبلا أنا ماليش ذنب والله.. صدقيني..

- مالكيش ذنب في إيه يا رحمة؟ مالكيش ذنب في القرف اللي إنتي عايشة فيه؟ مالكيش ذنب في إنك خليتيني ادخّلِك بيتي وفهمتيني إنك غلبانة ومقهورة، وانتي أصلًا شغالة.. لا مؤاخذة؟ مالكيش ذنب في إن صاحبي مات بسببك؟ مالكيش ذنب في إيه والاّ إيه؟

- صاحب مات؟ صاحب مات ازّاي؟ مات بسببي ازّاي يا أبلا؟

كانت تسأل عن موت صاحبي ولا يبدو عليها الكذب، كانت تنتحب نحيبًا حارقًا، أخبرتها بأن صاحبي قُتل بسببها وبسبب تتبّعي لها، وأن من قتله لا بدّ أن يكون من جهة من تعمل معهم..

- لا يا أبلة، دا أكيد حامد ابن الحرام، ماحدش بيعمل كدا غيرُه..

- وبعدين يعني؟ عايزة إيه بقى؟ مش خلاص؟ جاية تقولي إيه تاني؟

- جاية أقول لك، إني ماعملتش حاجة بمزاجي، أنا قلت لك إن سميرة اتجوّزت وقاعدة في البلد وحامل، بس سميرة لا اتجّوزت ولا حامل، سميرة كانت بتموت، عشان حامد كان بيشغلها معايا، ولمّا هربت منه عرف مكانها وجابها وولّع فيها، ما ماتتش بس اتشوّهت وقعدت في المستشفى ييجي شهر، وامَّا طلعِت رجّعْها البلد ورَمَاها عند مراة خالي، دا غير إنه ماعندوش مانع يفضحني، ويقول إني جِبت له العار وبعدين يموتني ويطلع راجل خايف على شرفه..

- كان في إيدك تقوليلي ونتصرف يا رحمة، كان في إيدك تقوليلي وماتكدبيش عليَّا وتخبّي المصيبة دي.. دلوقتي أنا ماعرفش أنا ممكن أعمل إيه.. إنتي جاية تحكيلي بعد ما اتورّطتي وورطتيني معاكي.. خلاص ماعادش ينفع أعمل حاجة..

- أنا مش عايزاكي تعملي حاجة.. أنا عايزاكي تسامحيني.. أنا هاهرب.. هاهرب يا أبلا من حامد.. ومش هجيلك تاني..

- تهربي تروحي فين؟ بلاش هبل بقى، إيه جوّ الأفلام دا.. فهميني إنتي عايزة تعملي إيه..

- أنا معايا فلوس، هاهرب على أي حتة.. هاشتغل في البيوت.. بس أهرب من حامد..

- ماشي.. بس قبل ما تمشي هتساعديني..

- أي حاجة.. أعمل أي حاجة بس تسامحيني.. أنا ماحدش وقف جنبي زيّك..

- أنا مش مصدقة إن أخوكي.. شقيقك.. يشغلك إنتي وسميرة الشغلانة دي.. هو عارف إيه اللي بيحصل هناك؟

- عارف؟ عارف بس؟ يا أبلا الراجل صاحب الشقة دي مجنون رسمي واللي معاه مجانين زيّه، وبيدفع لحامد فلوس لو كان بيشتغل في أكبر شركة مكانش هياخد نصها، دا غير إنه مصوّر حامد قبل كدا في حاجات زي اللي بتحصل عنده دي، دا عارف إن حامد أخويا أنا وسميرة، وكان بيخلّيه يقعد على ركبه يتفرج علينا من خرم الباب.. ولو شافه مابيتفرجش والّا بيدوّر وشّه، كان بيهدده إنه هيخلّي الرجالة اللي عنده يعملو فيه حاجة وحشة، بيصور كل اللي بيحصل فيديو، وساعات كان بيخلّي حامد يتفرّج معاه كمان، بعد كدا، حامد بقى بيدخل وبيشترك بنفسه في اللي بيحصل..

كدتُ أن أتقيَّا قرفًا واشمئزازًا.. حامد هو الشقيق الوحيد لخمس فتيات، واحدة منهن قتلها ارتفاع درجة الحرارة المفاجئ عندما كانت لم تتجاوز الرابعة من عمرها، والكبرى التي تكبر سميرة بخمسة أعوام تزوّجت وأنجبت أربعة أطفال، وما زالت تقطن في قريتهم الصغيرة. بين جمع المحاصيل تارةً، والعمل في بعض المحالّ في المدينة تارة أخرى، هكذا مرّت السنوات على سميرة ورحمة، وكان حامد الشقيق الفاصل بين سميرة ورحمة يتأرجح بين العمل في توصيل الطلبات للمنازل ومساعدة عُمَّال البناء وحراسة العقارات التي ما زالت تحت الإنشاء، لكنه لم يكُن يقضي في عمل واحد من بين تلك الأعمال أكثر من شهر ثمّ يعود إلى حياته المعتادة، الاستيلاء على ما تجنيه الفتاتان، النوم طيلة النهار، والعربدة والتسكع ليلًا. حتى حدّثه صديق له عن رجل يحتاج إلى حارس ليليّ لعقاره الواقع على أطراف المدينة، والذي كانت لا تزال أعمال البناء لم تنتهِ به. كانت فرصة جيّدة من وجهة نظر حامد وصديقه فاعل الخير، الذي أعطاه فكرة عن سخاء ذلك الرجل، فلماذا لا يعمل شهرًا يحصل على مبلغ من المال يُضاهي ما سيحصل عليه من العمل لمدة ثلاثة أشهر في أيّ عملٍ آخر؟ هكذا فكّر حامد ونفَّذ فورًا، ذهب والتقى الرجل، تسلّم العقار ونصف الأجر، وبعد مرور أسبوعين تأكّد حامد من أن الرجل لم يعُدْ يأتي لمتابعة العمل، فبدأ في التغيّب عن الحراسة عائدًا إلى سهراته المعتادة مع أصدقائه المقرّبين في جراجات بعض البنايات أحيانًا أو في جُحر من الجحور التي تُؤوي أمثاله من الزائدين على الحياة أحيانًا أخرى، لكن قبل انتهاء الشهر كان حارس العقار المقابل قد أبلغ صاحب العقار -الذي من المفترض أن يحرسه حامد- بتغيّب حامد عن الحراسة، وأنّ العقار الآن سيصبح عُرضة للنهب إن لم يتمكّن المالك من إحضار

حارس آخر. في تلك الأثناء كانت أمّ الخمسة أشقاء سقطت من فوق سطح بيت أحد جيرانها المكوّن من طابقَين في القرية وأُصيبت بكسورٍ في عظام الحوض، هاتفَت رحمة شقيقها، لكنه لم يُجِبْ عن أيّ من اتصالاتها، فقرّرت الذهاب إلى مكان عمله لإبلاغه بالأمر، كانت رحمة تقترب من مبنى العقار الذي يوجد فيه حامد هذه الليلة بعد أن اتفق مع ثلاثة من رفاقه على أن تنعقد السهرة في الطابق السفليّ من المبنى الذي يحرسه، كانت السهرة قد أوشكت على الابتداء، الفحم يشتعل، واللفافات جاهزة، وقطع الحشيش مُتراصة، وكمية لا بأس بها من أقراص التامول موضوعة جوار بقيَّة الخيرات الأخرى، كان الأربعة يتحدّثون ويتضاحكون تتسرّب أصواتهم إلى الخارج، ورحمة تقف بالباب تُنادي على الشقيق الذي لم يستطِع سماع نداءاتها خلال ضجيج القهقات والأحاديث المستمرَّة، دخلت رحمة تتلمّس الطريق إلى داخل المبنى المعتمّ، تسترشد بالصوت حتى إن اقتربت إليهم ثمّ عاودت النداء على أخيها الذي كان يجلس على ركبتيه يرتّب الفحم وينفخ في النار، فاجأه حضورها فهرع إليها جاذبًا ذراعها إلى خارج العقار، دار حديث وجدال تحوّل بعد دقائق إلى مشادَّة وسباب يخرج كالطلقات من بين شفتي الشقيق الذي تحاول رحمة مقاطعته بتأتأة لم تتطوّر إلى كلمات واضحة بسبب هياجه الشديد وعدم قدرته على استيعاب أيّ حديث من جانب شقيقته، في تلك اللحظة وصلت سيَّارة فارهة، ترجّل منها رجل باذخ المظهر، واقترب إلى حامد ورحمة اللذَين ما زال نقاشهما يحتدّ رغم محاولات رحمة لتهدئة الموقف. سكتَ حامد على حين غِرَّة وانسحبت الدماء كلّها من وجهه حتى أصبح لون وجهه قريبًا للون جلباب رحمة الباهت وتجمّدت نظرته وهو يحدّق بعينيه وراء رحمة التي كان يقف

خلفَها الرجل ينظر إلى حامد ويُقوّس كفّه حولَ أُذنه ليُحاول أن يتبيّن الأصوات الخارجة من داخل عقاره الذي تحوّل فجأة إلى حانة خاصة لسهرات حارسه الأمين.

هربت رحمة عائدة إلى قريتها ومنسحبة من المشهد الذي لم تفهم من أبعاده أكثر من أنّ شقيقها يبدو أنه وقع في ورطة جديدة، ظلّ الرجل يتابعها وهي تهرول مبتعدة عن المكان، ثمّ عاد لمواجهة حامد سريعًا وهو يتقدّمه داخلًا إلى العقار. انتهى الأمر بفرار رفاق الشقيق البائس الذي تحوّل إلى فأر مذعور في حضرة أسد يمسك بذيله ويطوّحه ذات اليمين وذات الشمال، كان من المتوقّع أن يطردَ الرجل حامد ويطالبه بنصف الأجر الذي دفعه له سابقًا مع بعض التهديدات وسيل جارف من السباب واللعنات، لكنّ الأمر سار على نحو آخر، فبعدَ أن فرغ الرجل من تفريغ طاقة غضبه في وجه حامد، سَحَبه من كُمِّ سترته إلى خارج البناية ثمّ أمره أن يستقلّ السيارة إلى جواره، خيّم الصمت قليلًا عليهما قبل أن يبدأ الرجل شرح عرضه الجديد. كان العرض يتمثّل في جزأين، الأوّل يكمن في كومة من التهديدات بتضييع مستقبل حامد والزجّ به في قضيَّة لن يستطيع الخروج منها ما دام هذا الرجل على قيد الحياة، إلّا إذا قرّر حامد الامتثال إلى الجزء الثاني من العرض، والذي يتمثّل في أن يُصبح الخادم المُطيع لهذا الرجل وينفِّذ ما يأمره به مهما كانت درجة غرابة الأوامر، وأوّل ما سيأمره به هو أن يُخبره من هي تلك الفتاة التي كانت تقف معه أمام العقار، أخبره حامد أنه سيفعل ما يريد وأن تلك الفتاة هي شقيقته الصغرى. اصطحبه الرجل في تلك الليلة إلى شقَّة يتجمّع فيها بعض الأشخاص، بعضهم يلعب الورق، وبعضهم يترنّح طربًا وسُكرًا بين

دخان اللفافات المحشوَّة بحشوات فاخرة، كان دور حامد في تلك الليلة هو أن يرعى الحضور ويلبّي الطلبات. وبعد أن انفضّ الجميع وأصبح المكان خاليًا إلّا من صاحب العقار وحامد، بدأ الأول في شرح وظيفة خادمه الجديد بصراحة وبدقة.

هناك مجموعة من الرجال "المُهمين"، ذوي النفوذ والمال والرغبات الفريدة من نوعها، يقدّرون الجمال والفنّ والسهرات الخاصة، كلّ المطلوب منك هو أن تلعب دورًا في هذه السهرات، إلى أن يُطلب منك دورٌ آخر.. طلبَ منه أن يحضر في مساء اليوم التالي لملاقاته في عنوان وصفه له بالتفصيل، وبدأ منذ تلك الليلة في لعب دوره في السهرات القائمة في الشقة رقم ٢٠ في البناية التي يقع فيها مكتب المحامي. كان دور حامد هو أن يشارك في العرض الذي يدور في الغرفة ذات الحوائط المغلفة بالقطيفة الحمراء والمرايا العريضة، يجتمع المتفرجون وراء الزجاج العاكس للمشاهدة وبعد انقضاء السهرة، منهم من يختار واحدة من الإناث المشتركات في العرض لاستكمال السهرة معها في مكان آخر، ومنهم من يختار واحدًا من الذكور المشاركين، تلك كلّها رغبات لا بدّ من تلبيتها لتفريغ جيوب الزبائن ولا ينبغي التعليق عليها. كلّ الرغبات مسموح بها، طبيعية كانت أم شاذة عن المألوف..

مرّت فترة كافية أثبت خلالها حامد ولاءه وطاعته، ثمّ عاد الرجل لتهديده الذي سيصبح هذه المرَّة أكثر قسوة وأكثر جبروتًا إن لم يُنفّذ ما سيطلبه منه، كان ثمن العفو عن حامد هو أن يُحضر شقيقته للمشاركة في العرض التالي.

دفعَها إلى الشقة المقابلة للشقة رقم ٢٠ وأغلق الباب، تلقّتها هناك الفتاة الشقراء، أخبرتها عمَّا سيدور، وأن الأمر يسير، ستتعوّد على كلّ شيء مع الوقت، جرّدتها من ملابسها وبدأت في تجهيزها، في حين كانَت عينا رحمة الجامدتان تحدّقان في الفراغ وتذرفان دمعًا بلا صوت، ساخنًا ينساب على جلدها الخمريّ الذي لم يعُدْ يشعر بأيّ شيء.

ولكي يُثبت حامد ولاءه منقطع النظير، وبعد أن أطلق في رأس ضميره ورجولته طلقتين أصابتهما في مقتل، أحضر سميرة لمشاركة رحمة في العمل الجديد، كانت تلك هي الليلة التي صادفتُهما في الطريق، وكانت سميرة تتهالك على الرصيف على أثر اعتداء حامد عليها عندما رفضت الاستمرار معه فيما يطلبه، بعدَ أن أجبرها على الحضور والمشاركة في ليلة من تلك الليالي. لم تكُن العروض محدّدة التوقيت، كان يتمّ تحديد الليلة حسب رغبة مالك الشقة ورفاقه، لكنهم في الغالب كانوا يختارون ما بين ليلتَي الأحد والخميس، تبلّغ الشقراء المشارِكات في اليوم السابق للعرض، يحضُرن جميعهنّ إلى الشقة المقابلة قبل العرض بساعتين أو ثلاث ساعات ليتجهّزنَ وينتظرنَ أمر البدء. أربعةٌ كانوا هم المسؤولين عن قيادة العرض وتصميم مشاهدِه، في البداية كانوا ثلاث فتيات وشاب واحد، لكنّه سرعان ما أثبت حامد جدارته بالقيادة فانضمّ إلى الأربعة ليصبحوا ثلاث فتيات وشابين، يسبقون الجميع إلى البناية وينتظرون قليلًا عند المدخل ثمّ يصعدون إلى الشقة المقابلة للبدء في التحضيرات. كانت الفتيات المشاركات في تلك العروض مختلفات في كثير من الجوانب، كنّ من جنسيات مختلفة، بمواصفات جسدية متباينة، كلّ المواصفات الجسدية للأنثى كانت توجد فيهنّ، الشقراء، السمراء،

الباهتة، المُحمَرَّة، الخمريَّة، ذات الشعر الأملس، ذات الشعر المجعّد، قصيرة القامة، مفرطة الطول، شديدة الأنوثة، ذكوريَّة الملامح.. إلخ، وكلّ مُتفرّج له الحقّ في الاختيار. مرّت كلّ الأشكال على رحمة، فهناك من عقد ذراعيها إلى قطعة من الأثاث وأمرها أن تتظاهر بأنّه يعتدي عليها، وهناك من فضّل أن تربطه هي وتؤذيه، وهناك من لاطفها، وهناك من عذَّبها، وهناك... وهناك...

انقضى على احتراق رحمة وسميرة في ذلك الجحيم قرابة عام، كلّما كانت إحدى الفتاتين تحاول الاعتراض وإبداء عدم الموافقة على الاستمرار، كان حامد يُجرّب قدراته القتالية عليها، إلى أن أشعل النار في ثياب سميرة التي كادت تموت لو لا أن شيئًا ما في قلب حامد حدّثَهُ بأن يُنقذها ويكتفي بالتشوّهات التي ستُعاني منها شقيقته طيلة حياتها، وكسر ذراع رحمة وساقها، وهدّدها بمصير أسوأ مما وصلت إليه شقيقتها إن لم تمتثلْ له.

ربما يكون السؤال المنطقيّ هو لماذا لم تنتحرْ رحمة؟ إن كان الهروب أثبتَ أنه حلم بعيد المنال، فلماذا لم تفكّر في هروب لا يحتاج إلى أكثر من نصل مسنون يقطع شريانًا واحدًا ويحملها إلى عالم أكثر رحمة وعدالة من هذا العالم؟ لكنّ من يمتلكون القدرة على الرحيل في الوقت المناسب ليس من السهل العثور عليهم.

- رحمة.. الشقة دي بتاعة مين؟

(سألتها بعد أن استمعتُ لتفاصيل القصَّة كاملة وأنا أحاول السيطرة على نفسي لأتمكّن من التفكير).

- اللي أعرفه إن صاحب الشقة دي واحد راجل غني أوي هو اللي بيجيب الناس اللي بيقعدوا معاه يتفرّجوا، وبعد كدا كل واحد يختار واحدة ويدفع له، مش هو صاحب البيت اللي حامد كان بيحرسه، دا واحد شغَّال معاه بس، لكن صاحب الشقة نفسه ماعرفوش، أنا شفته مرَّة واحدة وماشفتوش كويّس، كان رايح الشقة بدري وأنا كنت واقفة مستنيَّة سماح، شفته وهو طالع الدور الخامس بس هو ماشافنيش، وماحدش من اللي معايا شافه، هما أصلًا بيقعدوا يتفرّجوا من ورا مرايا كبيرة أوي كدا على حيطة بين الأوضة اللي إحنا بنبقى فيها والأوضة اللي جنبها، سماح بس هي اللي تعرفه..

- مين سماح؟

أخبرتني بأن سماح هي الفتاة الشقراء، وأن رحمة لم تكُن تقيم عند شقيقتها الكُبرى كما أخبرتني سابقًا، وإنما كانت تقيم مع تلك الشقراء في شقة في وسط المدينة، وأنها هي الوحيدة التي تعرف مالك الشقة. غير أنها تشاجرت معه شجارًا عنيفًا منذ أسبوع، ثم عاد كلّ شيء على ما يرام، ولم يفهم أحد سبب الشجار ولا كيف انتهى..

تاريخ ممدوح سيَّاف الحافل بالحوادث المخزية، ورائحته التي تفوح منها القذارات، إضافة إلى مصادفة وجود مكتبه الخاصّ في نفس البناية، والقصة التي لم أشعر بالارتياح ناحيتها عن أنه أغلق مكتبه هناك، ونقله إلى مكان آخر، كل هذا جعلني أبحث عن صورة له على شبكة الانترنت، عرضتُ بعد ذلك مجموعة من الصور التي يظهر فيها ممدوح سياف برفقة رجال سياسة ومال وثقافة على رحمة، فتعرّفت عليه، قالت إنه شديد الشبه بالرجل الذي رأته يصعد للطابق الخامس مبكّرًا قبل

وصول بقية الأفراد المشاركين معها فيما يحدث هناك، لكنها بعد التدقيق في الصور تأكّدت من أنه هو بسبب أثر جرح قديم كان واضحًا على ظهر كفّه اليمنى.

اختلطت مشاعري بالتعجب والاشمئزاز حين تأكد ظنّي، ثم طلبتُ منها أن تصِف حامد وصفًا دقيقًا، وسألتُها إن كان يمتلك "عربية ربع نقل"؟ قالت إنه شاب في منتصف العقد الثالث، أصلع الرأس، قمحي البشرة، ولديه شامة بارزة جوار عظمة الأنف من ناحية الخدّ الأيسر، يقود أحيانًا سيارة ربع نقل لونها أبيض، وأحيانًا أخرى دراجة بخارية من ذلك النوع الذي يستخدم في توصيل الطلبات للمنازل..

...

رحلت رحمة بعد أن اتفقنا على أنها ستؤجل فكرة الهرب قليلًا، وأنها ستحاول أن تجد طريقة لدخول الشقة في ليلة من الليالي التي تكون فيها الشقة خالية، ربما تستطيع الوصول إلى خيط يرشدنا إلى أيّ شيء..

لحسن الحظّ أو لسوئه أنه دائمًا ما يكون هناك مكان كافٍ للخيانة، سيَّاف لم يثق إلا في سماح، الشقراء التي ساعدتنا أنا وحسن في رؤية ما يدور هناك، وعلى ما يبدو أنها كانت في ذلك اليوم لا تزال تحت تأثير الشجار الذي دار بينها وبين سيَّاف، أو ربما كانت تريد الإيقاع به ولم تعُد تبالي لما سيحدث لها بعد ذلك، وهذا ما جعلها لم تتردّدْ كثيرًا في مساعدتنا. كان يترك معها نسخة من مفتاح الشقة المقابلة، لكنه يغلق الباب الواصل بين الشقتين بمفتاح لا توجد نسخة منه إلّا معه، يفتحه

فقط في الوقت الذي يوجد فيه هناك حتى يستكمل سهرته في الشقة المقابلة، لذلك تمكّنت الشقراء من فتحه لنا في تلك الليلة..

عاهدتني رحمة على أنها لن تتأخر في إبلاغي فور أن تتمكن من الوصول إلى شيء..

* * * *

obeikan.com

(٣٤)

بعد أقلّ من أسبوع، كانت رحمة قد أوفت بوعدها، حضرَت حاملة معها جهاز كمبيوتر نقَّال..

عانقتني وبكَت طويلًا، فهمتُ منها أنها سرقت سلسلة مفاتيح زميلتها الشقراء، وتمكّنت من إحاضر هذا الجهاز الذي وجدته مخفيًا في درج أخير من مكتب لا يُستعمل إلا كقطعة ديكور في الغرفة التي تقع وراء الزجاج العاكس، من المؤكّد أننا سنجد عليه ما يُفيد، وتأكّدَت من الشقراء بعد أن استدرجتها في الحديث في لحظة نشوة خاصة، أن اسم مالك الشقة هو ممدوح سيَّاف، والذي كانت تلك الشقراء عشيقة له لمدَّة طويلة، وكانت شريكة له في كثير من الأمور التي لا تسمح لها بالتمرّد أو الهرب..

هذه الليلة لن يكون هناك أحد في الشقة، لذا فهي فرصة مثالية لكي نأخذ ما نريد من على ذاكرة الجهاز ثمّ نُعيده مرَّة أخرى إلى مكانه. كانت لم تعُد خائفة من أيّ شيء، تريد إعادة الجهاز ثمّ الهروب على الفور.. تثق من أنني لن أفضح أمرها، لا تعرف ما الذي سأفعله بالتسجيلات التي من المؤكّد أنها تظهر فيها، لكنها على ثقة من أنني لن أكون سببًا في تشريدها وفضحها، عاهدتها على ذلك وأنا لا أدري كيف سأستعمل هذا كدليل إدانة لسيَّافها ومن معه دون أن يفتضح أمرها.. عاهدتها فقط..

التقيت حسن أمام المقهى، كنت قد وضعت جهاز الكمبيوتر في حقيبة السيارة وتركتها في جراج خاص وذهبت للقائه، بعد تفكير حول كيف تُرانا سنتمكن من فتح محتوى جهاز الكمبيوتر الذي حماه سياف بمجموعة من وسائل تأكيد الشخصية وكلمات المرور، قررنا الذهاب إلى مكتب رامي صديق حسن الذي يمتلك شركة صغيرة لبيع وتصليح أجهزة الكمبيوتر. طلبنا منه فتح الجهاز فقط لا أكثر، ثمّ حملنا الجهاز وغادرنا بعد أن تحاشينا كثيرًا من نظرات الارتياب التي ألقى بها رامي علينا..

تركتُ حسن الذي كان لا يزال يُفكّر في كيفية الاستفادة مما وقع بين أيدينا، وحملتُ الجهاز وانطلقت لملاقاة رحمة على بعد ثلاث بنايات من بناية ممدوح سياف، كانت تقف في مدخل تلك البناية، وما إن رأت سيارتي حتى هرعت تفتح الباب وتجلس إلى جواري. أعطيتها الجهاز بعد أن نسخت جميع ملفات التسجيلات والصُّور من ذاكرته..

- خلاص كدا؟

- خلاص كدا يا رحمة، مش عارفة أقولك إيه.. بس أكيد حقّك هيرجع لك قريّب.. اطلعي بقى عشان متتأخريش، إنتي متأكدة مفيش حد هناك؟

- مفيش حد هناك.. متقلقيش عليَّا، وبعدين هيجرالي إيه يعني أكتر من اللي حصل؟

قالتها وهي تبتسم ابتسامة يائسة، فالأمل رفاهية لا يمتلكها كثيرون..

نظرَت من حولها ثمّ تأملتني للحظة، كأنّها عادت سريعًا من غفوة مؤقتة، ثمّ فتحت باب السيارة لتخرج منه:

- تفتكري هشوفك تاني يا أبلا؟

ابتسمتُ وأنا أمسك بيدها وهي تخرج من السيارة..

- أكيد هشوفك تاني يا رحمة.. أول ما تستقري في مكان.. كلميني.. وأنا هبقى أشوف طريقة وأزور سميرة في العنوان اللي خدتُه منك..

- خلّي بالك من نفسك يا أبلا.. وماتفكيش الرباط الاسود، دا بيجيب خير كتير..

* * *

عدتُ إلى المنزل وجلستُ أمام جهاز الكمبيوتر الخاص بي، وصَّلتُ رقاقة الذاكرة الإلكترونية التي نسخت عليها كل ما استطعت العثور عليه على ذاكرة جهاز سيَّاف، ثمّ قمتُ والتقطتُ كرة الراكيت من درج مكتبي وبدأت في قذفها إلى الحائط والتقاطها وأنا أنظر للشاشة المفتوحة أمامي.. ثمّ استجمعت نفسي وبدأت في البحث عن الملفات ضمن أطنان المحتوى الإباحيّ المقسّم على تسجيلات مصوّرة وصُور عادية..

مئات من التسجيلات لمئات من الليالي الشيطانية وأكوام من الصور الأخرى.. يظهر فيها كلّ المشاركين في تلك الليالي ما عدا ممدوح سياف..

لطالما كرهتُ ذلك الإنسان المدعو ممدوح سيَّاف، لكنني لم أتوقّع أن يصل به القبح والإجرام إلى هذا الحدّ..

أولئك الذين يخفضون صوتهم ويتسلّلون في الخفاء هم الوضيعون، لهذا فإنّ الشرفاء دائمًا ما تكون خطواتهم ذات وقع صاخب ومسموع..

سيَّاف كان يُدرّسُ لي في كليَّة الفنون، له جسد لا ينمّ إلّا عن ذات متعفّنة، جسد معوجّ، يثيرُ غضب العين حين تراه، ينمو شعر رأسه بطريقة

عشوائية، لا تدري إن كان يعاني الصلع أم ماكينة جزّ الحشائش سارت على رأسه بطريقة فوضويَّة. يرتدي ثيابًا فاخرة باستمرار إلى الحدّ الذي يجعلك تتساءل: ألم يجد هذا الرجل شيئًا ليهتمّ به سوى تبديل الملابس الفارهة؟ لم يكُن يحاول علاج مشاكل جسده المعيب، وإنما هي ثقوب نفسه ما كان يحاول سترها. كان كثير الكلام، يثرثر إلى الحدّ الذي يجعلك تهزّ رأسك يمينًا ويسارًا حتى تتساقط نفايات حديثه عن أذنيك، صوته عالٍ بالفطرة، وضحكاته كاذبة لا تخرج من القلب. شخصيَّة مزيّفة هذه هي الجملة الأدقّ لوصف ممدوح سيَّاف رجل الأعمال الثريّ ورئيس قسم النحت في كليَّة الفنون.

أذكر أننا عندما كان يُجبرنا على دراسة بعض المنحوتات التي كانت من تنفيذه، كنا جميعًا نرى ضعف تصميماته ومحاولاته البدائيَّة كي يُقحم نفسه على الفنّ، لم يكن أكثر من مُحاضرٍ أو أكاديميّ يفتقد إلى مهارات التدريس الأساسيَّة. معرفته اليقينية بضعفه وعجزه هي التي جعلته يستعذب فكرة أن أغلب طلابه لا يحصلون على تقدير أعلى من المقبول في المواد الدراسية التي كان يدرّسها، كنتُ أتخيله وهو ينفث دخان سيجاره الغليظ ويحتسي مشروبه بنهم بالغ وملامحه توشك على أن تتشقّق من حول ابتساماته وضحكاته الشامتة، حين يراقب بكاء الطلاب ويأسهم بعد ظهور نتيجة الامتحانات..

لم أكُن أهتمّ بالحديث عنه، فالأنذال لا يستحقّون حتى الكلام العابر. لكنني كنت أستمع أحيانًا إلى حكايات حوادث التحرّش التي كان يُتهم بها ذلك السيَّاف، غير أنه لم تثبت ضدّه حادثة واحدة. قيلَ كذلك إنه شوهدَ وهو يقف في مكتبه ويتلمّس أجزاء حساسة في بعض التماثيل

العارية التي لم يخلُ منها مكتبه يومًا وهو يضحك ويُلقي دعاباته عديمة المذاق في حضور بعض الفتيات المقرّبات إليه مثل إيمان عزمي وأخريات..

والآن بعد أن تأكدتُ من امتلاكه تلك الشقة ومسؤوليته عما كان يدور فيها، ما الذي يجعلني أتعجّب؟ ممدوح سيَّاف هو ذلك المخلوق المتجذّر في الشرّ، هو ذلك المجرم الذي يسنّ السيف وهو يرتدي درعًا واقية ليحمي بها قلبه الشرير.

بعد بضعة شهور من عملي في الشركة التي ما زلتُ أعملُ بها، عرفتُ أنه عضو في مجلس إدارة الشركة، وأنه أكثر الناس إثارة للمشاكل، كانت دائمًا تحوم حوله الشبهات حول استخدامه منصبه في التلاعب بأسهم الشركة مستعينًا بعلاقاته ببعض المسؤولين في الإدارة والمراجعة الماليَّة، حتى انتهى الأمر مؤخرًا بأن غادر مجلس إدارة الشركة وباع جميع أسهمه..

* * *

هاتفتُ حسن، وأخبرته بأنني هاتفت كمال، وأنني سأكون في انتظارهما في المساء، في طريقي للقائهما تلقّيت ثلاثة اتصالات متتالية من ثلاثة أرقام غريبة، لم أجِب عن أي منها. حضرَ كمال مبكّرًا عن حسن بنحو نصف الساعة، أخبرته عما وقع في يديّ، ثمّ انضمّ إلينا حسن، وجلسنا نفكر معًا..

رأى حسن أننا لا بدّ من أن نسلّم رقاقة الذاكرة بما عليها للشرطة، فأبدى كمال عدم ارتياحه لذلك الاقتراح، نظرًا لأنه من الجائز جدًّا أن

يجد ممدوح سياف طريقة لعرقلة الموضوع وربما محوه بالكامل من خلال علاقة ما له بأحد المسؤولين، وماذا بعد؟

اقترحتُ أن نبدأ في تنفيذ فكرة المقالات اليومية عن ممدوح سياف واستخدامه لمنصبه في التلاعب بأسهم الشركة، وضعه المالي غير المفهوم، إضافة إلى امتلاكه تلك الشقة وما يدور فيها بعلمه وبكامل رغبته وتدبيره، ثمّ بعد ذلك نبحث بحثًا مكثَّفًا عن أحد الضباط الشرفاء الذين يمكنهم المساعدة..

لاقت فكرتي البسيطة استحسان كمال وحسن، ثمّ انصرفنا بعد أن طلب مني كمال كتابة ما رأيته وما أعرفه عن ممدوح سياف وإرساله له سريعًا، وافقتُ بحماسة كبيرة ثمّ عاد كلّ منا إلى بيته..

كان عمّ مصباح قد أحضرَ أخاه ليشاركه حراسة المنزل، وأخبرني بأنه يلاحظ أن السيارة التي كانت تأتي لمراقبة المنزل لم تعُد تأتي، وأنّ هناك عددًا من الأشخاص يترددون باستمرار على الشارع وأنه اشتبه بينهم في الشخص الذي كان يأتي بالسيَّارة البيضاء لمراقبة المنزل، وصفتُ له حامد، كما وصفَتهُ رحمة، وطلبتُ منه أن يُخبرني حين يراه، وسألته مرَّة أخرى عن رائحة الحريق، لكنه أكد أنه لم يشمّ رائحة دخان أو حريق على الإطلاق، وأنه تأكد من أنه لم يحدث حريق في أي مكان في محيط المنزل..

يبدو أنّ الحريق كان طوال هذه الفترة ولا يزال ينبعث من داخلي!

قبل أن يطلع نهار اليوم التالي كنت قد كتبتُ كلّ شيء وأرسلته إلى كمال على بريده الإلكتروني الخاص. كان قد مرّ على الموعد الذي حدده ممدوح

سياف لمقابلتي في مكتبه بالكليَّة تقريبًا ثلاثة أيَّام، لم أذهب للقائه في الموعد، ولكنني أرسلتُ إليهِ هديَّة معبِّرة جدًّا..

مررتُ بالكليَّة صباح يوم الخميس، أي بعد يومين من الموعد المحدّد، كنتُ قد اصطحبتُ عمّ مصباح معي وطلبتُ منه أن يصعد إلى مبنى كلية الفنون ويبحث عن سَعيد، المسؤول عن البوفيه في طابق مكاتب الأساتذة، ثمّ يسلمه الهديَّة التي لففتها بورق مُعتم، وكتبتُ أسفلها "هديَّة بسيطة للأستاذ الدكتور المحترم جدًّا ممدوح سياف"، وشدّدتُ على عمّ مصباح ألا يُفصِح عن المُرسل..

لم أبذُل جهدًا كبيرًا في تجهيز هديّتي للسيَّاف، منحوتة صغيرة لكلب ينهش عُنق رجل.. ستعجبه على كلّ حال..

* * * *

(٣٥)

لم يتأخّرْ ممدوح سيَّاف في الردّ على الهدية، ففي صباح الأحد التالي، ما إن دخلت إلى مكتبي في الشركة، حتى تلقّيت خبر إقالتي، وكان التنفيذ فوريًا، بلا فترة إخطار ولا تسليم، هكذا وبلا أي مقدمات، تركتُ مكتبي ونزلتُ ثانيةً حاملةً أغراضي لأستقل سيارتي وأرحل..

بالطبع، كانت الهدية التي أرسلَها السياف بحاجة إلى إهداء، لذلك كانت مبعوثته الفنانة الفذَّة إيمان عزمي تقف جوار السيارة في انتظاري، تظاهرتُ أنني لم أرَها، وجلست في كرسيّ القيادة، وقبل أن أشغِّل المُحرِّك، كانت إيمان قفزت إلى داخل السيارة وجلست على الكرسيّ المجاور وعلى وجهها ابتسامة من أقبح ما رأيت في حياتي..

- هتعملي إيه دلوقتي يا زين؟ أكيد هتدوّري على شغل تاني.. بس تفتكري هتلاقي شغل بسهولة؟.. يا حرام

- عايزة إيه يا ايمان؟

- ولا حاجة.. عايزة أقول لك اعقلي بقى، وماتلعبيش لعبة إنتي مش ادّها..

- كويس أوي، قلتي اللي عندك؟ اتفضلي بقى بالسلامة..

- واضح إنك مش فاهمة حاجة خالص.. إنتي هتفضلي غبية كدا لحد امتى؟ من ايام الجامعة وانتي كان في إيدك حاجات كتير بس غبائك اللي

كان بيخليكي تخسري، مش دا ممدوح سياف اللي كان ممكن يعيّنِك مُعيدة في الكلية وبمنتهى السهولة، بلاش.. مش كان ممكن يشغَّلِك معاه وتتنقلي نقلة تانية غيرك كتير يحلمو بيها.. إنتي عملتي نفسك مش واخدة بالك من كلّ دا واتخرجتي بتقدير هايف، واشتغلتي زيك زي أي حد.. وبعد كدا جاية تحفري وراه وفاكرة انه ممكن يتهز بالهبل اللي بتعمليه.. الخلاصة.. ماتلعبيش مع الأسد يا قطة..

- أسد؟ وقطة؟ لا دانتي طلعتي جميلة أوي.. طب بصي بقى، قولي للمريض اللي باعتك.. الأسد، القطة هتقطعلك ديلك عشان تمشي والعيال تضحك عليك، قوليله قيامتك قامت خلاص.. ومعادش في كلام.. أنا عايزاه يجيب آخره بقى..

حدّقَتْ إليَّ وعيناها الضيقتان اتسعتا بقدر الذهول الذي حطّ عليها..

- براحتك.. بس خافي على نفسك..

لم أنظرْ إليها، ترجّلتُ وأسندت ظهري إلى جانب السيارة، أشعلت سيجارة ولم ألتفت لها، حتى استقلت سيارتها واختفت..

قدتُ السيارة وابتعدت عن الشركة، كنتُ أعضّ على أسناني حتى أوشكتُ على تكسيرها، كان الغيظ والغضب والقلق كلها تختلط وتتصارع في قلبي، لم يستطِعْ عقلي التفكير بطريقة منطقية رغم كل محاولاتي لترتيب الأفكار واستجماع الخيوط، ماذا سيحدث؟ أو ما الذي يُمكن أن يحدث؟ الاحتمالات.. لا أعرف..

توقّفتُ لشراء كوب من القهوة وبعض المأكولات السريعة، كانت هناك شاشة تلفاز وراء الشاب الواقف على مكتب الحساب، يُعرض برنامج

متخصص في عرض حالات الحوادث - بغض النظر عن نظرتي لهذه البرامج غريبة الأطوار ومجهولة المصادر - كانت المذيعة تتحدث عن صورة ظهرت إلى جوارها على الشاشة لجثَّةٍ لفتاة شقراء تدعى سماح وفيق، وُجِدت جثتها جوار ترعة المريوطية بعد فجر اليوم، ولم يتبيّن سبب الوفاة بعد!

خرجت من المكان بوجه هربت منه كلّ علامات الحياة إلا عينين اتسعتا فزعًا ويدين ترتعشان ولا تقويان على تلمّس مكان المفتاح في باب السيارة. بعد مرور بضع دقائق وأنا أقف أمام باب السيارة أحاول التركيز نجحت في فتح باب السيارة، أدرتُ المحرّك، لكنني لم أقوَ على القيادة، ظللتُ في حالة من البهتان والهلع فترة، ثمّ هاتفتُ شقيقي سامي الذي لم أعُد أفهم متى سيعود، كنتُ في حاجة له، ولأوّل مرَّة منذ زمن بعيد أُفكّر أنني يمكنني أن أرتمي في حضنه، أُخبره أنني في حاجة له، وأنني أكاد أموت خوفًا، أريد أن أبكي، لكنني لا أستطيع، البرودة تزداد من حولي ورائحة الحريق تخنقني والوحدة برد وفزع وصحراء مقفرة مترامية الأطراف تمتدّ من حولي وتتسع في كلّ لحظة.. فكرة أنّ هناك من يشاركني السكن خاصة عندما يكون شقيقي الأكبر فهذا سيبدو حائط صدّ لكثير من محاولات التعرّض، لم يُجِبْ سامي عن اتصالي كالعادة، تركتُ له رسالة قصيرة ليتصل بي سريعًا ولأمر ضروريّ..

لم أعُد للبيت، ذهبتُ لوسط البلد، ظللتُ أمشي وحدي، أتابع صاحبي الذي يتقافز حولي، أرى جثَّة الفتاة الشقراء في كلّ مكان، جوار الأرصفة،

تسبح في الفراغ بين أعمدة الإضاءة، يحملها شخص ما ويمشي قادمًا نحوي.. أرى رحمة وعلامات الضرب على وجهها وسائر جسدها، أرى ممدوح سيَّاف مشنوقًا يتدلّى جسده على عمود إضاءة في ميدان من ميادين وسط البلد والناس يمُرّون جواره يُشيرون نحوه ويتصايحون ويبصقون عليه.. إيمان عزمي تبتسم والدم يقطر من بين شفتَيها، أتصور حامد وأنا أمسك رأسه وأصفعها برصيف الطريق حتى يسيل دمه القذر، أراني أتعثّر وتنزلق قدماي في بقعة واسعة من الدم، ثم أرى صاحبي ذبيحًا ينظرُ إليّ ويصرخ صراخًا ضعيفًا، يبكي ويطلب مني المساعدة ثمّ يسكت صوته وتنغلق عيناه..

* * *

قبل حلول المساء بساعة تقريبًا عدت إلى المنزل، تلقّيتُ رسالة قصيرة على هاتفي من سامي، يقول إنه ما زال في العمل، وسيهاتفني عندما يعود إلى مكان سكنه. لم يبدُ أن شيئًا ما يدعو للقلق، كان عمّ مصباح جالسًا كالعادة يستمع لجهاز الراديو الصغير، وجواره أخوه الذي يشاركه الحراسة. اقتربت لهما..

- عمّ مصباح سلامُ عليكو..

-وعليكم السلام حمد الله عالسلامة يا أبلا زين..

- إيه الأخبار يا عمّ مصباح؟ في حاجة حصلت النهاردا؟

- لا كله تمام مفيش حاجة حصلت..

- طيب أنا عايزة منك خدمة..

- أؤمري حضرتك..

طلبتُ منه أن يظلّ كما هو يراقب الشارع جيّدًا، ما زال الوقت مبكرًا،

والشمس لم تغِب بعد، لذلك هناك احتمال كبير أن يأتي حامد مرَّة أخرى، أعدتُ له وصف حامد بدقة، وطلبتُ منه أن يُخبرني بحضوره على الفور..

صعدتُ للمنزل، تفقدت الشرفات والنوافذ، ثمّ جلستُ أفكّر قليلًا، ماذا لو أخبرني عمّ مصباح أن حامد الذي ذبح صاحبي وشرّد شقيقتيه المسكينتين وبثّ الرعب والحقد في قلبي موجود وفي إمكاني أن أقبض على عنقه في أقل من خمس دقائق؟

أحضرت هاتفي، وهاتفت "كارمن"، فتاة تعرّفت إليها في الحديقة العامة التي كنتُ أعتاد الخروج إليها بصُحبة صاحبي، فتاة في منتصف العِقد الثاني من عمرها، لها قامة طويلة، نحيفة، لكنّها متناسقة، وجهها يميل إلى الشكل المثلّث ينتشر عليه النمش كأنه رشات خفيفة من مسحوق القهوة على بشرة فاتحة، تخضّبه حُمرة طبيعية تتناسب مع لون شفتيها الرقيقتين، كانت تحتفظ بقصَّة شعر قصيرة لشعرها الأحمر المجعّد حتى يبدو كأنّه قبّعة حول وجهها الصغير. لم تكُن رقّتها تتلاءم مع نوع صديقتها الوفيَّة، لكنه الحبّ الذي لا يُحدّد الشكل ولا النوع، كانت تأتي برفقة حبيبها "حسام" أحيانًا كثيرة، ذلك الشاب طويل القامة قصير الشعر ذو المظهر الرياضيّ والملامح الجادة، ظننت أنه أخوها في بادئ الأمر، لكنها أطلعتني بشيء من الخجل على علاقتهما بعد أن توطّدت علاقتي بها من خلال مساعدة بسيطة قدمتُها لها عندما نشب شجار بين "رَستي" وأحد الكلاب في الحديقة أسفر عن جراح بالغة، كانا يحضران معًا للحديقة ويصطحبان معهما رفيقَيهما "رعد" و"رَستي"، - ألو..

رعد ذكر روت وايلر* تجاوز العامين تقريبًا، ورَستي أنثى بيت بول* بيضاء مُرقّطة ما بين العامين والثلاثة على ما أتذكّر.

- ألو.. كارمن ازّيك؟

- أهلا زين، أخبارك إيه؟ تمام؟

- زي الفل، إنتي عاملة إيه، ورَستي أخبارها إيه؟

- تمام يا حبيبتي، وانتي صاحبك أخباره إيه؟

- ماشية الدنيا، بقول لك يا كارمن، أنا محتاجاكي في خدمة، ينفع تيجي وتجيبي رَستي وتكلمي حسام يجيب رعد ويجي كمان؟

- أكيد طبعًا، إيه نازلة تمشّي صاحبك؟

- لا، شوفي يا ستي هفهمك..

أخبرتها بما حدث لصاحب، ألّفتُ لها قصة وهمية لأنني لم يكن في وسعي إطلاعها على الحكاية الحقيقية بكامل تفاصيلها، أخبرتها باختصار عمّا أنتوي فعله، والأمر الذي سأحتاج رعد ورستي من أجله، وافقَت بعد أن أبدت أسفها الكبير على خسارة صاحبي، وقالت إنها ستهاتف حسام وسيحضران في المساء..

* * * *

*اسم نوع من أنواع الكلاب وهو فصيلة من الكلاب الشرسة وتعتبر عضّته هي الاقوى على الإطلاق بين سائر عضّات الكلاب. أصله من ألمانيا ويوجد بكثرة في أمريكا الشمالية وهي أنواع غير رائجة في العالم وتعتبر من أنواع الكلاب التي تستخدم في الصيد أحيانا

*هو كلب هجين من عدة فصائل كلبية، يتميز بقوة كبيرة، وشراسة. تخافه معظم الكلاب لشراسته، وهو من أقوى كلاب العالم وهجن هذا الكلب على أساس صيد الطرائد الضخمة

(٣٦)

عندما يصفعكَ أحدُهم لا تُدِرْ له خدّك الثاني، بل اقطعْ يدَه..

هذه هي قناعتي التي سأظلّ أؤمن بها أبدًا، الصراخ أشرف من النحيب، وظُلم الظالم عدل..

وصل حسام وكارمن برفقة رعد ورَستي، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً على وجه التقريب، استقبلتهما في حديقة المنزل الخلفية، وأخبرت عمّ مصباح أنني هناك وأنتظر منه تأكيدًا على وجود الشخص الذي أعطيتُه موصفاته..

بدأت في شرح تفاصيل القصة لكارمن وحسام بمزيد من التفاصيل، حتى بدا كل منهما متحمسًا لتنفيذ خطتي أكثر مني. حاولتُ اللعب مع رعد ورستي الذَين كانا يبحثان عن صاحبي، كانا يتشمّمان ملابسي التي علقت بها رائحته، يدوران وينبحان نباحًا لا يعني سوى أنهم ينادون عليه، كنتُ أقاوم صورة صاحبي الذي يتقافز من حولي ثمّ يسقط مذبوحًا أمام عينيّ..

مضت نحو ساعة، ثمّ حضرَ عمّ مصباح مهرولًا ليُبلِغَني أنّ حامد موجود برفقة شخص آخر على بعد بنايتين من هنا، كانا واقفَين يستندان على دراجة بخارية مُتهالكة، ينفثان دخان سجائرهما ويتحدثان وهما ينظران باتجاه منزلي..

بدأنا في التحرك أنا وكارمن وحسام وصاحباهما المُدرّبَان، قمنا بالالتفاف من الشارع الخلفيّ، وبدأنا في الاقتراب من الرجلين بحيث كان ظهراهما في مواجهتنا، لم يتطلّب الأمر أكثر من إشارة صوتيَّة بسيطة لرعد ورستي حتى يبدأ العرض المُمتع..

...

رجلان يركضان في قطعة أرضٍ فضاء من الرمل الأصفر خالية من كل شيء، يتعثّران، يسقطان فيزحفان ويكملان الركض على رُكبِهما وكفوفهما ثمّ ينجحان في الوقوف ثانية بصعوبة ويكملان الركض والصراخ، ما زال الكلبان مربوطين يركضان وراء الرجلين يشدّهما حسام وكارمن ويركضان معهما، كنتُ أمشي سريعًا خلف الجميع، أنفخ الدُّخَان وأستمتعُ من كلّ قلبي بالمشهد غير الإنسانيّ، أُحدّث صاحبي الذي يمشي جواري ويتقافز وهو يلهث، أسأله عن رأيه فيما يحدث، عمَّا إذا كان هذا كافيًا، شعرتُ أنه لم يكتفِ بعد، لحقتُ بحسام وكارمن ركضًا، أعتقد أنه ينبغي علينا الآن إطلاق سراح رعد ورستي.. يبدو أنّ السلاسل قد أوجعَت عنقَيهما..

بحركة خاطفة، كان رعد ورستي يأخذان ثأر صاحبي، كان يكفي سقوط الرجلين على وجهيهما، والكلبان فوقهما ينبحان نباحًا يخلع القلب من مكانه رعبًا، يتطاير اللعاب من لِسانيهما منهمرًا على رأسي الرجلين ووجهيهما، كان يكفي العويل والتوسّل والبكاء.. لكنني لم أكتفِ بعد..

الكلبان مدربان على المطاردة دون العضّ، لكن هذه المرَّة يبدو أن صاحبي كان قد دلّهما على قاتِله، تمزّقت ملابس الرجلين، وبدأت الدماء تجري

من كثير من أجزاء جسديهما المنكفِئين على الرمل.. نادَى حسام وكارمن على الصديقين الوفيّين فهرعا لتلبية النداء، أشعلتُ سيجارة أخرى وتوجّهت نحو الفريستين الممددتين على الأرض بين الدم واللعاب، وقفت أمامهما وتعرّفت حامد من الشامة جوار أنفه ورأسه الأصلع، ناديته ففتّح عينيه ونظر بصعوبة نحوي، ألقيت سيجارتي بالقرب من وجهه..

- كدا خالصين يا قُرني.. مش كدا؟ مش اسم الكريم قُرني برضُه؟

تركتُه ومضيتُ بعد أن بصقتُ اشمئزازي وحِقدي على وجهه الغارق في اللعاب ودموع التوسّل. رافقتُ حسام وكارمن وصاحبيهما إلى شقتي ليغتسلا ويسقيا البطَلين رعد ورستي اللّذَين ثأَرَا لصاحبهما وصاحبي، شرِبنا القهوة معًا ثمّ رحلا ومعهما صاحباهما الوفيان..

استلقيت على الكُرسيّ، أضحكُ حينًا وأكاد أكسر أسناني غيظًا حينًا آخر، أقذف الكُرةَ ذات الجرس وأنظر إلى صاحبي الذي يتقافز حولي.. دون أن يلتقط الكُرة..

* * * *

(٣٧)

بعد سفرٍ دام لمدَّة عامين كاملين عادت أمينة صديقتي التي افتقدتُها كثيرًا، هاتفَتْني بعد لقائي حسن، واتفقنا على أنني سأزورها مساء اليوم التالي. ذهبتُ لزيارتها ورويتُ لها كثيرًا ممَّا حدث، كانت صدمتها لرحيل صاحبي أكبر من ردَّة فعلها لقصة رحمة، لكنّني لم أتعجّب من ذلك، فأمينة عادة ما تفاجئني بأفكارها وردود أفعالها..

كانت سعادتي بعودة أمينة كبيرة، شعرتُ أنّ حظّي يربتُ كتفي مواسيًا إيَّايَ بعد أن فقدتُ رفيقي الأوفى على الإطلاق، وبعدَ أن خذلَني سامي شقيقي الوحيد كما يفعل دائمًا..

لم يعُدْ سامي، اكتفى بأن أرسل إليّ رسالة قصيرة أخبرني فيها أنه أضطرّ للسفر إلى ألمانيا وسيستغرق سفره مدَّة شهرين. لماذا يتوجّب علينا انتظار الذين يرحلون ويتركوننا وحيدين؟ لماذا لا نتعلّم القُدرة على الفَقْد والتخفّف من هؤلاء الذين يستوطنون في قلوبنا كالأحمال التي وُضِعت قهرًا وإجبارًا وليس لنا الحقّ في التخلُّص منها؟ أن تستطيع حذف كلّ من لا يستحقّون التذكّر من قائمة معارفك، أن تستطيع النسيان والاستعداد للتخلّي عن أيّ شخص في أيّ وقت، هذه نعمة سماويَّة كُبرى لا يمتلكها إلا الأقوياء!

* * *

في اليوم التالي تمّ نشر مقال رقم ١ بعنوان "أستاذ جامعيّ مكروه ورجل أعمال تطارده الشائعات في الصباح، وجلّاد في منتصف الليل" بقلم: ز.ر. قرأت المقال وأنا أشرب قهوتي في السيارة قبل دخولي إلى المقهى للقاء حسن..

تناقشنا حول المقال، وما يجب علينا فعله بعد ذلك، قال لي إنه تذكّر أن أحد أقربائه ينتوي الترشّح لعضوية البرلمان، وإنه يثق في نزاهته وقدرته على مساعدتنا أو حتى توصيلنا بمن يستطيع المساعدة، وافقَت مبدئيًا على أن نفكّر جيّدًا قبل أن نتخذ أي خطوة، خصوصًا أن المقالات التي بدأت من صباح اليوم ستترك سياف في حالة من الاضطراب والتخبط مما سيمنحنا وقتًا جيدًا لدراسة الأمر..

كانت فكرة زيارتي لسميرة تحتلّ جزءًا كبيرًا من ذهني، خصوصًا بعد أن ذهبَت رحمة ولم تتصل بي كما اتفَقنا، لذلك قررتُ زيارتها في مساء الجمعة التالية..

* * * *

(٣٨)

حضّرتُ نفسي بعد ظهر الجمعة، وانطلقتُ لزيارة سميرة.

قرية صغيرة، نقطة مجهولة على الخريطة، كلّ شيء يُشبه ما روَتهُ لي رحمة. حقول شاسعة تظهر بين البيوت الصغيرة مفرطة البساطة، تنساب عليها أشعَّة الشمس فتبرز الألوان من بين الظلال. سيقان الذُرةِ تهتزّ بمداعبات النسمات الخفيفة، وجوهٌ عذّبتها الشمس كثيرًا وجرّفتها قسوة الحياة. أعداد من الأطفال الحُفاة بعضهم يتضاحكون ويركضون خلف الماعز والغنم، مجموعة أخرى يتقاذفون كرة قديمة ولا يبالون بالذين يمرّون ويقطعون المباراة الحامية، وآخرون يختطفون أكواز الذرة الناضجة وهم يتصايحون ويضحكون ويلوذون بالفرار، فيُلاحقهم رجلٌ يضع طرف جلبابه في فمه ويمسكه بأسنانه ليتمكّن من الركض والقبض على السارقين الصغار، فيُضيف مظهره وصياحه المتقطّع على المشهد مزيدًا من المرح.. جميع الناس في هذه البقعة يضحكون، أليست هذه فضيلة الفضائل، أن يتعلّم الإنسان كيف يفرح جيّدًا؟ لكنه الجوع.. الجوع ما يجعل الناس هنا أرواحًا حيَّة معبّأةً في أجسادٍ ميّتة، موتى لهم عيون يقظة وشفاه ضاحكة، مجرَّد مدينة صغيرة للموتى على حدود العاصمة..

صففتُ سيارتي قرب مركز شرطة صغير في مدخل القرية، وبدأت البحث عن منزل زوجة خال رحمة وسميرة كما وصفته لي رحمة، سألت في الطريق امرأة أشارت على البيت الذي كان مكونًا من طابقٍ واحدٍ من

الطوب الأحمر، اقتربت من بابه الخشبيّ الذي كادت طرقاتي تهوي به أرضًا..

فتحَت لي سيّدة ترتدي جلبابًا أسود، ظهرت وراءَها صبية يبدو عمرها في مكان ما حول الخامسة عشرة، ثمّ بدأت عيونٌ أُخرى في اللمعان من حولهما، كلهم أطفال السيدة التي عرفت أنها زوجة خال رحمة وسميرة. رحّبت بي واستقبلتني بعفويَّة وود كبيرين..

جلستُ حتى أحضرَت شايًا ومضى الأطفال كلّ ينشغل بشيء ما. الصبيَّة جالسة إلى جوار أمّها، اسمها "نجاة"، تحمل بعض الملامح من رحمة خاصَّة ابتسامتها الزاهية والشامة الرقيقة في وسط الخدّ الأيسر، وملامح أخرى من والدتها. كانت تربط حول رسغها الأيسر رباطًا أسود كالذي حول يد أمّها، تبسّمْتُ حين وقعَ نظري عليه..

كان على وجه الأمّ همٌّ يُغطي ملامحها الهادئة. بعدَ حديث قصير عن الجوّ والمسافة والطريق، سألتها عن سميرة، وإن كان لديها خبر عن رحمة..

صمتَتْ قليلًا ثمّ أشارت لابنتها أن تتركَنا وحدَنا..

- حضرتك الأبلا زين اللي كانو سميرة ورحمة بييجو عندك؟

- أيوه يا حاجَّة مانا قلت لحضرتك أول ما جيت..

- رحمة وسميرة.. رحمة وسميرة البيت ولّع بيهم من يومين..

- إيه؟!

* * * *

(٣٩)

ركام أسود، رمادٌ لا يبدو من خلاله أيّ أثر لأيّ شيء، رائحة الحريق ما زالت طازجة، هكذا كان شكل البيت الذي اصطحبتني إليه الحاجَّة "فاتن" زوجة خال رحمة وسميرة.

مشيتُ بين الجدران التي كان قد انهار كثير منها، لا نوافذ ولا أبواب، أشارت لي أنّ الحريق ربما نشب في الغرفة الوحيدة المغلقة قبالة باب البيت، لم تُكنُ غرفة الآن كانت جدارين فقط، تهدّم نصف أحديهما وتحوّل السقف إلى حفرة واسعة تؤدّي إلى السماء، وسط كلّ هذا الرماد والرّكام المتناثر على الأرض، تعثّرَت عيناي في رباط من الخيط الأسود معقود ومُلقى على الأرض ولم يحترقْ، كأنه انخلع عن رسغ إحدى الفتاتين ولم تُصِبه النار..

التقطتُ الرباط الأسود من بين الرماد، وسألتها عنه، قالت إن هذا الرباط لا يحترق، ولا يسمح باقتراب السوء ممن يرتديه، كدتُ أنفجر غضبًا في وجه السيّدة التي ما زالت تُصدّق تلك الأسطورة الخادعة، لكنني تمالكتُ نفسي، كم هو سهل ويسير أن تُسيطر الأوهام على الضُعفاء!

رحلْتُ عند الغروب، حاملةً الرباط الأسود، كانت زوجة الخال تؤكد أن الحريق نشب بطريقة طبيعية، كأنّها كانت مع الفتاتين وقت الحريق، لن

تُقنعني تأكيداتها ولن يقنعني جهاز الأمن العام ولا المخابرات العامة بأن ما حدث كان طبيعيًا، حامد هو الجاني الوحيد، حامد هو الشقيق الذي باع نفسه وقاد شقيقتيه إلى الحريق الممتدّ من البداية للنهاية بكامل إرادته، لم يعُدْ عقلي يقوى على التفكير، لم أبكِ، لم تتحرك ملامحي، تركتُ المرأة تقفُ بين صِغارها، ألقيتُ نظرة أخيرة على لوحة المأساة القادمة المرسومة على ملامحهم، وحملتُ الرباط الأسود.. وذهبت..

* * *

ظللتُ طوال الطريقِ أحدث نفسي عن هذا الميراث الغريب، الشيء الوحيد الذي تتوارثه تلك العائلة. وهمٌ مربوط حول الرسغ الأيسر كي يجلب الخير.. ما أسوأ أن يُصبح الأنسان وريثًا!

دخلتُ إلى المنزل، صحراء ترامت أطرافها في كلّ اتجاه من حولي، لا صاحب فيها، ولا محلّ لصاحب جديد، كانت الورقة التي رسمتُ فيها رحمة وصاحب لا تزال على الطاولة.. نظرتُ إليها، حملتها وقرّبتها إلى عينيّ لأراهما بوضوح من بين الأمطار التي بدأت تتساقط من بين جفنيّ..

لم يبقَ لي سوى رسم بسيط على ورقة ضعيفة لذكرى مضَت، لصاحبين راحلين، نُدبةٌ لجرحٍ بالغ في القلب..كيف يُمكنني الثأر لرحمة أو سميرة؟ هل عليّ أن أثأر لهما؟ ثمّ مَن هو الجاني؟ حامد أم ممدوح سيَّاف؟ أم هو القرية والشارع والمدينة والعالم بأكمله؟ من هو الذي سيتحمّل فاتورة الدم هذه المرَّة؟

حملتُ الورقة والرباط الأسود وتكوّمت على نفسي فوق الكرسيّ الذي بات يزداد اتساعًا وبرودةً من حولي، لماذا أشعرُ أنني ولأول مرَّة في حاجة بالغة لذراعين دافئتين تُطوّقان جسدي البارد؟

* * *

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ برفقة حسن إلى قسم الشرطة، حرّرنا بلاغًا ضدّ المدعو ممدوح سالم السيد سيَّاف نتهمه فيه بامتلاك شقة وإدارتها بغرض القيام بأنشطة غير مشروعة، وسلّمتُ رقاقة الذاكرة الرقمية كدليل إدانة. ثمّ حرَّرتُ بلاغًا آخر، أتهمُ فيه المدعو حامد مسعد أبو العينين بقتل شقيقتيه رحمة مسعد أبو العينين وسميرة مسعد أبو العينين حرقًا. بعد أن انتهيتُ من تحرير البلاغين والإجابة عن كلّ تساؤلات كاتب البلاغ وضابط المباحث، خرجتُ أنا وحسن من قسم الشرطة، واتفقنا على أن نلتقي قريبًا، ربما الليلة، وربما غدًا..

* * *

كم شخصيَّة يتألّف منها كلّ واحد منَّا؟ كم وجهٌ يوجد مخفيًّا وراء كلّ وجه؟ كلّما مرّ الوقت، وجدتُ نفسي لم أعد أشبه الشخص الذي كنتُهُ قبل فترة، ذلك الشخص الذي لا يُشبه الشخص الذي كانه قبل فترة، كيف تحمّلتُ التخطيط للانتقام من حامد إلى هذا الحدّ من الدمويَّة؟ كيف استطعتُ الصعود إلى الشقة المقابلة لشقة ممدوح سيَّاف وكيف تحمّلتُ مشاهدة ما يحدث هناك في تلك الليلة إلى آخر لحظة؟ بل كيف استطاعت ذراعاي أن تحملا صاحبي وتتركاه وحده تحت التراب؟ لكنّني بالرغم من كلّ ذلك لم أكُن أتوقّع أن أصبح على ما أنا عليه الآن. بعد

عودتي من قسم الشرطة، وبلا وعي وجدتُ نفسي أسقط في عاصفة من البكاء، بكاء ينفجر من الداخل، يعصف بكلّ شيء، أخرج من البكاء إلى صمتٍ أكاد أسمع فيه صوت الهواء وهو يمرّ جوار أذني، لا أحسّ بحركة ملامحي لكنني أُفيق من غيبوبة اليقظة على ألمٍ يسري متقدّمًا من أعلى جبهتي وحتى ذراعيّ، أذكر أنني بدأت في المشي في الغرفة في الممر بين المكتب والكرسيّ ذهابًا وإيابًا ثمّ بدأت في الصراخ، صراخ بلا بكاء، صراخ غاضب مخيف، انتهيت منه بعد أن سقطتُ أرضًا في عاصفة جديدة من البكاء أنظر إلى الجروح التي تناثرت على قبضتيّ اللَّتين كنت أضرب بهما الحوائط وأصفع بهما كلّ ما كان يقع في طريقي.. يُقال أنه على قدر أهل العزم تأتي العزائم، وعلى قدر أهل الصبر تأتي الخسائر، لكنني لا أشعر أنني الآن أمتلك أدنى قدرة حتى على رفع جسدي المتكوّم على الأرض..

* * *

مرّ أسبوعان على تحرير البلاغين، خرجتُ قبل الغروب للمشي قليلًا، ثمّ مررتُ بمقهى صغير قرب منزلي، جلستُ وراء زجاج المقهى، أنظر للشارع وأشرب قهوتي، رنّ جرس الهاتف، كان حسن هو المتصل، أبلغني بأنّه تمّ إلقاء القبض على حامد، وأنه الآن قيد التحقيق، فرحتُ بذلك وتمنّيت له أسوأ العقوبات على الإطلاق..

- وممدوح سيَّاف؟ عندك فكرة حصل إيه في البلاغ بتاعه؟

- ماوصلتش لحاجة لسه.. بسّ هكلّم حد في خلال يومين هيكون عرف إيه اللي هيحصل معاه..

- تمام.. وكمال.. تعرف حاجة عنه؟ أنا بكلمه تليفونه مقفول..

- أنا كمان نفس الحكاية، بكلمه تليفونه مقفول..

في طريق العودة، اشتريت جريدة "الواقع"، كان من المفترض أن يُنشر المقال الثاني لسلسلة المقالات التي اتفقنا عليها أنا وكمال، لكنني لم أعثر عليه. ما وجدته كان عنوانًا عريضًا في صفحة "الثقافة"، رجل الأعمال الفنان ممدوح سيَّاف يُمثّل مصر في معرض النحت السنوي بجمهورية التشيك، مع صورة كبيرة يبدو فيها السيَّاف مبتسمًا ابتسامة عريضة وجواره تقف إيمان عزمي نحَّاتة مصر القادمة!

طويت الجريدة التي كان مكتوبًا على صفحتها الأولى، رئيس التحرير: سامر فهمي.. لقد أقالوا كمال المنسي!

ألقيتُ بالجريدة في القمامة، وتوجّهتُ إلى مغارتي الانفرادية..

* * *

حين يمتلك الإنسان القدرةَ كي يُخرج الخير والرحمة والشفقة من قلبه، ثمّ يقترف الشرّ في الوقت المناسب، يصبح حينئذٍ بطلًا، لكنني لست بطلة، ولا أسعى لدور البطولة. كلّ ما في الأمر أنني كنتُ أؤمن بحفنة من المُثُلِ والفضائل التي لفظَها العالم وتقيّأها منذ زمن بعيد. إنها النهاية المنطقيَّة للعبة العبيد والملوك.

جلستُ قبالة قطعة النحت التي أوشكتُ على الانتهاء منها، وضعتها جانبًا، ثمّ أحضرت قطعة طين جديدة، ووضعتها في المنتصف..

لا تزال رائحة الحريق تغلّف أرجاء المكان، فكّرتُ في خلع الرباط الأسود والتخلص منه، لكنّ هاجسًا ما كان يرنّ في قلبي ويمنعني من خلعه. كنتُ أعرفُ أن الوهم لا يموت، يموت الذين يسيرون وراءه ويُصدّقونه، لكنني على الرغم من ذلك لم أخلع الرباط الأسود، بل ربطتُ الرباط الآخر جواره حول رسغي الأيسر، ونظرتُ إلى الورقتين اللتين تظهر في إحداهما رحمة وصاحب، وفي الأخرى صاحب وحده وتوقيع رحمة الطفوليّ. كان السؤال الذي يُلحّ على قلبي ضمن العاصفة المهولة من التساؤلات التي لا إجابة لها، لماذا لم أجِد في بيت سميرة ورحمة بين الرماد سوى رباط واحد؟ الاحتمال الأول أن تكون إحدى الفتاتين قد خلعت رباطها قبل الحريق، وفي هذه الحالة سيكون الرباط قد نجا ولم تنجُ الفتاة. الاحتمال الثاني أن تكون الفتاتان قد احترقتا وهما ترتديان الرباطَين حول رسغيهما كالمعتاد، ماتت الفتاتان ونجا رباط واحد وتفحّمَ الآخر، لكنّ النهاية في كلا الاحتمالين ظلّت واحدة: الموت، إلّا إذا كانت هناك نهاية أخرى لا أعرفها، ولا أستطيع تصديقها، وهي النهاية التي تفسّر أنني وجدتُ اتصالين على هاتفي من سميرة بعد مرور ثلاثة أشهر على الواقعة!

* * *

ألقيتُ نظرةً على رقعة الشطرنج التي يقف عليها الجنود بلا ملِكين، تبسّمتُ لهم وحيّيتهم تحيَّة عسكريَّة، ثمّ أمسكت الكرةَ ذات الجرس الصغير، وبدأت في قذفها والتقاطها، كان صاحب يتقافز من حولي ويلهث، كان يضحك، يهزّ ذيله ذات اليمين وذات الشمال، لكنني عندما

قذفتها إلى ركن الغرفة، سقطت وتدحرجت ثمّ استقرّت ولم يتلقطها صاحبي..

بدأتُ في تشكيل المنحوتة الجديدة، ولمَ لا؟

كلب من الحجم الكبير باسط ذراعيه، يرفع حاجبيه، ويلقي عليّ نظرة ثابتة إلى الأبد..

* * * *

obeikan.com

(٤٠)

غادرَت أمينة بعد أن لبّيتُ طلبها وحكيت لها قصة رحمة وسميرة من البداية إلى النهاية، لا أدري ما الذي كانت تفكّر به، رحلت فحسب، عانقتني وأعادت عليّ جميع نصائحها التي قد حفِظتُها عن ظهر قلب، ووعدتني بأن تمرّ عليَّ في اليوم التالي..

لست متأكّدة إن كانت فكرة حكاية القصة كاملة وتذكُّر تفاصيلها صائبة أم لا، لن أستطيع الآن أن أتبيّن إن كان شيء في داخلي قد تغيّر أم ما زلتُ أهرب حتى من نفسي. كل ما أعرفه الآن أنني لم أعُد أبالي باتصالَي سميرة، هي المتصلة أم سواها، أعتقد أنني سأفكّر في تغيير رقم هاتفي كما اقترح عليَّ حسن..

حضّرتُ فنجان قهوة جديدًا، وجلستُ قبالة النافذة، بدأ الصباح في زحفه اليوميّ على الشوارع. قذفتُ الكرة ذات الجرس والتقطتُها عدَّة مرَّات، ثمّ نظرتُ إلى صاحبي الذي ظلّ ينظرُ إليَّ باهتمام بالغ، ألقيتها إليه ولم أُتابِعْها. لا بدّ أنه سيلتقطها ذات يوم..

ما زال هناك وقت قبل أن تقتحم الشمس خصوصيّتي، سألعب لعبة جديدة، صففتُ الجنود على الجانبين، وبدأت اللعِب..

لعبة سيصنع فيها الجنود مصيرهم الجديد بلا ظُلم ودون ملوك.

تمَّت

* * *

obeikan.com

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

obeikan.com